منى حلمى

رجل جديد فى الأفق

مجموعة مقالات

الطبعة الأولى

١٩٨٨

الغــلاف بريشة الفنانة : سهير عثمان

طبع هذا الكتاب بمساهمة مالية من :
السـفارة الكندية بالقاهرة ومحتوياته لا تعبر الا عن
راى المؤلفـة .

اهـــــداء

نحبــك أيهــا العقـــل

قــدر ما تجعلنــا أحرارا

نحبــك أيهـــا الوطـــن

قــدر ما تجعلنا أحـــرارا

ونحبــــك أيهــا الــرب

قــدر ما تجعلنا أحــرارا

الـــى « الحـــرية »

دائما .. أبدا أفــق جديد

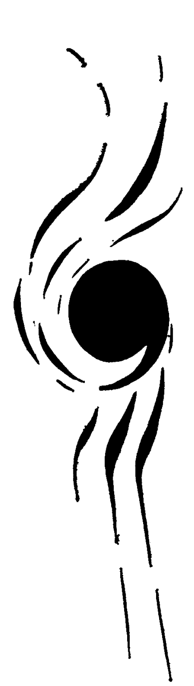
لا عشق دونه .. لا ابداع دونه .. لا فضيلة دونه

مــنى حــلمى

محتـــويات الكتـــاب

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧	٧	من يحدث	ما يحدث
١٢	٢٠	الاحساس	الأحسان
٢٣	١٢	اختلفه	المختلفة
٢٣	١٢	ـــــ	تلعب
٢٣	١٢	تسوية	تشويه
٢٨	١٠	العنصرى	أو العنصر
٣١	١٦	أصفر	أصفر
٣٤	١٣	الاجتماعى	الاجتماعية
٥١	١٦	ستوقف	ستتوقف
٥١	٢٠	يتبعد	يبتعد
٥٤	٧	محتضنه	نحتضنه
٥٨	٩	ولا	ولانها
٦٥	١٩	وليس	وليست
١٠٦	١٩	العبارات	للتيارات
١٠٧	١٧	كينيانا	كينياتا
١١٠	٨	ولسوء	وسوء
١٢٦	٨	ـــــ	تعطينا
١٤٩	١٧	.	،
٢٠٥	٥	وتأثرا	وثائراً
٢١٣	١٨	.	،



الرائحة الخامسة

الفن الأصيل الجميل ، هو الفن الذى لا يمكن أن يمــر عليك — ســواء كنت المبدع الخــالق أو المتلقى — مرور الكــرام .

لابد أن تصبح انسانا آخر بعد الاستماع الى لحــن أو قراءة قصيدة أو قصة أو تأمل لوحــة . وخالق الفــن أيضا ، يتحــول الى انسان آخر غير الذى كان قبــل بــدء واتمام عملية الابداع . وهو تغير غالبا من يحدث دون وعى كامل من الانسان . لكنه يحــدث ويؤثر ، ويضيف الى المبدع قدرات جديدة على الابداع ، ويضيف الى المتلقى قدرات أخرى على التذوق .

والهند .... كالفن الاصيل الجميل .

يستحيل أن تمر عليها أو تمــر عليــك مرور الكرام .
يستحيل بعد رؤية الهند أن تبقى كما أنت قبل رؤية الهند .

هذا ما حدث لى ، حينما زرت الهند لأول مرة فى صيف عام ١٩٧٦ . أصبح فى حياتى حيــاتان : حيــاتى ما قبــل الهند ... حياتى ما بعد الهند .

لم أكن أعرف أن « غاندى » — ٢ أكتوبر ١٨٦٩ — ٣٠ يناير ١٩٤٨ — صانع استقلال الهند ، وباعث حسها القومى ، بعد أن ظلت مائة وخمسين عاما « جوهرة التاج البريطانى » ، سيلعب دورا فى صنع استقلالى وبعث حسى الانسانى •

لم أكن أعرف أن بتعرفى على بعض من حياة « غاندى »، وعلى بعض من الهند ، ستهدأ تساؤلاتى الكثيرة عن معنى الوجود وجوهر الايمان •• كيف يكون الانسان انســانا •• وهــل ينتمى الى فكــرة أم الى أرض •• وما هى حــدود الارادة •• وما حــدود العقل • لمــاذا الفقــر والنزوع الى السيطرة ؟ •• كيف يثور الانسان وبأى أسلحة يتسلح ؟

ولم لا ؟ هل يصعب على انسان استطاع توحيد ما يقرب من خمسمائة وخمسين مليون شخص ، يقطنون واحد وعشرين ولاية ، بها ما يقرب من خمس عشرة لغة رسمية وأكثر من سبعة أديان ، أن يوحــد أجزاء نفس واحدة ؟ !

غانــدى والــدين

آمن « غاندى » بأن هناك وحدة تجمع بين كل الأديان • وكان الله بالنسبة له ، موقفا لصــيق الصلة بالحياة اليوميــة للنــاس ، وليس زهــدا أو استغراقا منعــزلا فى الطقوس المختلفة • وحــد « غاندى » بين معنى الله وكل محــاولة دؤوبة للقضــاء على الفقر والظلم والتفرقة بين البشر •

كتب « غاندى » يقول : « اذا ظهر الله فى الهنـد ، فلابد أن يظهر كرغيف من الخبز حتى يؤمن به الناس » •

ورغم انحـدار « غاندى » من أسرة عرفت بتدينهـا الشديد ، ورغم ادراكه الدائم لفائدة الدين فى الاسترشاد للحـق والعدل ، الا أنه كان لا يؤمن بأى فكرة دينية تناقض العقـل والحكمة وتسـاعد فى ترسيخ أى نوع من التفرقة بين الناس •

غانـدى ونظـام الطوائف

تقسم الديانة الهندوكية المجتمع الى نظام صـارم من الطوائف • وتعتبر طائفة « البراهمـا » هى قمـة المجتمع الهندوكى • « براهمـا » هو اله الخلق والكون ، ولذلك فهى طبقة عليـا ، وتمثل القائمين بالفكر والدين — وتقع طائفة « التشودرا » فى قـاع المجتمع الهندوكى ، حيث أصحاب المهن اليدوية المختلفـة • ومن هـذه الطائفـة نشأت فئـة « المنبوذين » التى تقوم بأحط الاعمـال فى نظـر المجتمع الهندوكى ، مثل جمع القمامة ولم جلود الحيـوانات الميتة وذبحها • وقد انعزل « المنبوذون » فى مكان مخصص لهم ، لا يشربون الا من بئر خاص ، ولا يلمسـون الأخـرين ، ويتعرضون لكل أنواع الاستغلال المستباحة • وتبعا لنظـام الطوائف هـذا ، لا يتم التزاوج بـين طائفتين مختلفتين • ولا يحق لانسان تغيير طائفته الى أن يموت •

أدرك « غانـــدى » بحسه الانسانى المرهف ، بشـــاعة هذا النظـــام الموروث من الديانة الهندوكية وقام بثورة عملية لكسر هذا الارث • فقـــام بتزويج رجـــل وامرأة ، كل منهما ينتمى الى طائفة مختلفة ، بل من أكثر الطوائف بعـــداً ، طائفة « البراهما » قمة المجتمع ، وطائفة « المنبوذين » قـــاع المجتمع • وكان هذا لأول مرة فى تاريخ المجتمع الهندوكى • وقد أطلق « غاندى » على « المنبوذين » اسم « هاريجان » أى أطفـــال اللـــه •

كما أدرك « غانـــدى » أن نظام الطوائف وما نشـــأ عنـــه من تقسيم طبقى ، هو من الأسباب الرئيسية لضعف الهند وخضوعها للاحتـــلال البريطانى • كان يرى أنه لا فائدة من الحديث عن تحرير الهنود من الاستعمار الاجنبى ، طالما أن الهنود أنفسهم يعاملون ما يقرب من عشرين بالمائة منهم على أنهم منبوذون •

« كيف نعترض على معـــاملة بريطانيا لنـــا على أننـــا منبوذون ، ونحن نعامل أهلنا المعاملة نفسها ؟ » هـــكذا تساءل غانـــدى •

غانـــدى وارادة العقـــل والجسد

آمن « غاندى » بارادة الانسان اللا محدودة فى التحكم فى العقـــل والجسد ، والصمود فى أقسى الظـــروف • المهم

أن يكون للانسان دافع قوى يحفزه ويهون كل معاناه وألم • وكما قال « حياتى هى رسالتى » • وقد توحدت حياته ورسالته فى قضية تحرير الهند • وككل قضية عظيمة ، احتاج غاندى الى ارادة عظيمة •

ويكفى أن نشير الى المسيرة التاريخية الشهيرة التى قادها « غاندى » وعرفت بمسيرة الملح فى ١٢ مارس ١٩٣٠ •

فى ذلك اليوم ، خرج « غاندى » من مدينته « أحمد أباد » فى ولاية « غوجرات » ، سائرا على الأقدام الى قرية « داندى » فى مقاطعة « سوارت » ، وقد قطع عهدا على نفسه ألا يعود الا بعد تحرير الهند • بدأ السير مع تسعة وسبعين من أتباعه ، وعندما وصل الى محيط العرب فى مقاطعة « سوارت » ، كان قد قطع خمسمائة كيلو متراً على مدى أربعة وعشرين يوما • وعلى طول الطريق ، تحول الجمع الصغير الى الآلاف من الهنود فى المدن الصغيرة والقرى ، الذين شاركوه فى الاحتجاج ضد بريطانيا • وعند الشاطىء توقف « غاندى » وتوقف معه الزحف الضخم • توجه الى تلال الملاح القريبة •• رفع بعض الملح الى أعلى ثم تركه يتساقط مصاحبا بالهتافات الرعدية • فهمت الجماهير قصد « غاندى » من هذه الحركة البسيطة •

لقد بدأ هذا الزحف احتجاجا على احتكار الادارة الانجليزية للملح وفرضها ضرائب باهظة على تداوله .

لكن لمــاذا الملــح :

أدرك « غانــدى » أنه أفضــل بداية لتجميع وتوحيد الخمسمائة وخمسين مليونا من الهنود . ان أفقر الفقــراء الذى لا يتناول الا كسرة من الخبز ، يحتــاج الى بعض من الملح . وليس هنــاك جسم يستطيع الاستغناء عن الملح . ولهذا أطلق على هــذا الزحف ذو الارادة الخارقة ، اسم « نمك ساتياجراها » نمك يعنى ملح . ساتياجراها ، تعنى الاصرار على الحقيقة دون عنف . فى كل مراحــل كفاحــه ، ومواقف الارادة الصــعبة ، كان « غانــدى » يؤكــد أن الجسد ليس وعاءاً للطعــام والشراب والمتع الحسية . بل أداة للرفض وسلاحا ثوريا لا يتردد فى استخدامه الى حــد الفنــاء . ان امتناعه المتكرر عن الطعام ، قبل وبعــد تحرير الهنــد ، كوســيلة لايقــاف الاضطرابات الطائفية ، مثــل بسيط على تطويعه لجســده ليشارك فى صنع عالم أفضل .

غانــدى والثورة الســياسية

تبنى « غاندى » فلسفة « الساتياجراها » أى الاصرار على الحق والوصــول اليــه دون عنف ومعاملة الاســاءة بالاحساس والمحبــة ، معتمداً على أثر الخير فى الاصــلاح

ومن هنا جاءت دعوته الى العصيان المدنى أو المقاومة السلبية للانجليز •

تبنى « غانــدى » هذه الفلسفة ، ليس فقط من قبيل التفكير الواقعى • فهــو مدرك تمــاما أن الامبراطــورية البريطانية بقوتها وأسلحتها ، قادرة على سحق أمة كالهند • لكنه جــاء بشكل أساسى ، انعكاسا لايمانه بمبادىء المسيح فى نشر المحبة والتى تجســدت فى موعظته على الجبــل : « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعينيكم وصلوا من أجل الذين يسيئون اليكم » •

كما أن « غانــدى » كان يرى أن سياسة اللاعنف ، هى تحضر البشر • أمــا العنف فهــو تعبير عن التوحش ومحاولة للعودة الى البربرية والهمجية • وعلى هذا ، يصبح اللاعنف قمة الثورة وقمة الايجابية وليس عجزاً أو سلبية • ويصبح العفو أرقى من الانتقام والسلام أرقى من الحرب • كل هذا الرقى — عند غاندى — يأتى من قوة نفس تستطيع قهر قوة الســلاح •

أدرك « غاندى » أن الاستقلال السياسى للهند ، لن يتحقق طالما أن الهند تصــدر انتاجهــا الزراعى كمــادة خــام ، ثم تشترى المنتجات الانجليزية الجاهزة • ولهــذا دعا الهنود الى الامتناع عن استخدام الاقمشة الانجليزية ،

والعـودة الى النـول اليدوى للغـزل • واستجاب مئـات الألـوف من الهنـود ، رجـال ونسـاء من كل الـديانات والطبقات • وأصبح النول بعد عودة « غانـدى » رمـزاً وطنيـا للوحـدة • وفى الوقت نفسـه ، مفتاح احيـاء الصناعات القديمة والحرف التى اشتهرت بها الهند ، والتى جعلت الاستقلال السياسى ممكنا فيما بعد • شيء آخـر ، جعل استقلال الهند ممكنا ، ألا وهو طريقة معاملة « غاندى » للناس ، وأسـلوب حيـاته المشـابه لاسـلوبهم • كتب « غاندى » : « لا تستطيع أن تساعد الناس حقـا الا اذا عشـت مثلهم •• سـاعد الناس على أن يفعلوا الاشـياء بأنفسهم وأن يكتشفوا امكانياتهم •• لا تحل محلهم » •

وكانت حياته نموذجا نادراً فى البسـاطة والتقشف ، أقنعت الملايين بصدق دعوته • فكان يقيم فى كوخ بسـيط صنعه بنفسه على نهر « السابارماتى » • يتغذى على لبن المـاعز وقليـل من الارز والليمـون والتمـر ، لا يشرب الكحوليات أو الشاى أو القهوة • وكانت ممتلكاته فى الدنيا : ثوب أبيض من القطن ، صندل ، مكتب منخفض ، دوايـة حبر ، ريشـة ، اناءان صغيران من الفخـار ، طبق من المعـدن ، ثلاث ملاعق من أحجام مختلفة ، سـكين ، نول يدوى للغزل ، عصـا طويلة ، وردة حمراء موضوعة فى كوب

مـــاء • كان يعتقد أن الفقر موجـــود ، لاننا نأخـــذ أكثر من حاجتنـــا •

ونجح « غانـــدى » فى دعوته الى المقاومة دون عنف • فلا أحـــد يشترى المنتجات الانجليزية ولا أحـــد يدفـــع الضرائب ولا أحـــد يقاوم قـــوات البوليس والجيش وهى تقـــوم بحمـــلات الاعتقـــال • ممـــا كان يحـــير الانجليز ويدهشـــهم ، فكيف يتعاملون مع تلك الملايين التى تســـلم نفسها دون أدنى عنف ؟ !

قال « غانـــدى » مرة ، « لأن بريطانيا دولة حكيمة ، فسوف تترك الهند • سنخرج الانجليز دون رجعـــة بالحب والارادة فقط • الى الدرجة التى تجعل الانجليز أنفســـهم يحبون هذا الخروج » •

غانـــدى وفلســـفة المـــرح

لقد اعتدنا على الثورية ذات الملامح القبيحة • اعتدنا الاعتقاد أن الثورية ترادف الخشـــونة والتكشير والتجهـــم والتحفز دائم الهجوم •• اعتدنا الاعتقاد أن الثورية تتطلب تعقيد اللغة وتعقيد أشياء الحيـــاة •

ويجىء « غانـــدى » بنمـــوذج جـــديد للانســـــان ونموذج جديد للثورية • نموذج لا تناقض فيه بين الثـــورة

والرقة ، بين الثورة وروح السخرية والمــرح .. بين الثورة والبساطة . والبساطة تبدأ بأن يبتسم الانســان . وكذلك العظمــة .

هذه الأمور — فى رأى غاندى — ليســت على هامش الثورية . بل جــزء أســاس وضرورى فى نسيج القــدرة على الثورة . الانســان الثورى — أكثر من أى انســان آخــر — يحتاج الى المرح . قال غاندى : « لو لــم أملك القدرة على المرح ، لهزمتنى أول مشكلة قابلتها » .

كان لا يجد غضاضة فى مشاركة الناس الذين يسخرون منه ، يبادلهم النكتة دون أدنى شعور بالكراهية أو الحزن .

هذا المرح ، كان « لغاندى » ضرورى أيضــا للحفاظ على صحة النفس وصحة الجسد .

لكن هذا المرح ، كان أبعــد ما يكون عن الســذاجة ، أو الاستجابة الضعيفة العفوية للمواقف . كان فى جوهره ، انعكاســا لوعى « غانــدى » العميق للتناقضات الاجتماعية ونضجه الانسانى الحساس للناس والأشياء . ونذكر مثــلا شهيراً على هذا . فقد دعى « غانــدى » لحفــل استقبال فى قصر ملك الامبراطورية البريطانية . وذهب بثوبه الابيض الذى يكشف جسمه القصير النحيل . وسأله أحــد الانجليز

فى الحفل باستنكار : « أهذه ملابس مناسبة للقاء الملك ؟ »
رد « غانــدى » بابتســامة : « اطمئن يا صديقى فالملك يرتدى من الملابس ما يكفينى ويكفيك ويكفى كل المدعوين » •

ـنــدى والتواضــع

كان « غانــدى » ، يرفض كل محاولة تضعه فى مكانة القديس أو الملك لقوى خارقة لا يملكها البشر • فرغــم قدرته على توحيد وتحــريك ملايين الهنود ذى الأجنــاس والديانات المتباينة وهو جالس على « حصيرة » ضــد أعتى الامبراطوريات ، ورغم تحــوله الى نوع من « التعويذة » التى تجلب الحظ السعيد ، وتفتح أصعب الأبواب ، الا أنه كان يصر فى كل مناسبة وموقف مع الناس ، على كــونه انســاناً عادياً جــداً ، لــه كل أخطــاء ونقائص البشر • ورسالته هى خدمة الهند والانســانية جمعاء • ووصــــل به هذا التواضع ، الى الحــد الذى كان يجعــله يســعد بالسجن والاعتقال والتعذيب من جانب جيش الاحتــلال • لأنه سيحرر الناس من وهم أنه انســان غير عادى • بــل ويدفعهم الى عمل شىء ، تجــاه اعتقاله • فيكتسبون ثقــة فى أنفسهم ، وتستمر الحــركة الوطنية الهندية ، بوجوده أو عــدم وجوده • وهذا ما كان يتمناه • هــذا التواضع ، لم يكن فقط نتاجا لانسانية « غانــدى » المرهفة ، ولكنــه

تعبير عن ثوريته الحقـة فى تحرير الهند واسـعاد ملايين الهنـود رجالا ونسـاءاً • فهو لم يحلم بالشهرة أو السلطة أو المصلحة الشخصية التى تتخـذ الوطنية سـتاراً لهـا • لهـذا لا ننـدهش اذ أطـلق على « غانـدى » المهـاتما أى الروح العظيم •

غانـدى •• الانسانية •• والرقة

تميز « غانـدى » بحس انسانى راقى ، جعله يضـع عقـل الانسان فوق كل موروث •• ويضـع الانسـان فوق كل معنى •• ويضع المعنى فوق كل وطن •

لقد التقى مرة واحـدة ، بالزعيم الهندى « طيـلاق » الذى سـأله « أيهمـا تختار ، الهنـد أم الحـق ؟ » • رد « غانـدى » : « الهند والحق عندى مترادفان • لـكن اذا خيرت ، سأختار الحـق » • وعن رقته ، نجـد أنـه كان ينظر بعين العطف والتقـدير ، الى كل كائن فى الطبيعة كان رقيقا تجـاه الحيـوانات ، فنهى عن صـيدها وذبحها للأكل •• وكان رقيقا تجـاه كل فكرة أبدعهـا الانسـان للاصـلاح • كان رقيقا مع الذين يعادونه • ومع رقتـه ، كان خصومه لا يجـدون مفـراً من احترامه وتقـديره ، رغم تهديده الواضح لمصالحهم • وحينما يخطب فى الناس ، كان قمة فى الرقة • فلا ينفعـل ، لا يغضب •• لا يسـب

الأعـــداء •• لا يلوح بيديه فى الهـــواء كما يفعـــل كثـــير من الخطبـــاء « الثوريين » •• ولا يرفع صـــوته زاعقـــا بالشعارات كعادة القادة • كان غاية فى التهـــذيب والرقـــة والعقلانية •

غانـــدى والنهـــاية

وتجىء المفارقة فى حياة « غاندى » يوم ٣٠ يناير ١٩٤٨ فى حديقة « بيت بيرلا » فى نيودلهى ، حيث كان يصلى مع آلاف المصلين • المفارقة ، أن الانســـان الـــذى كافح من أجـــل اللاعنف والمحبة والسلم • والذى عاش رغم أســـلحة وجيوش الامبراطورية البريطانية ، تقتله أثناء الصـــلاة ، رصاصة هندية متعصبة •

مفارقة ، تعيد الينا درســـاً متكرراً نحـــاول تناسيه ، ألا وهو أن العـــدو فى الداخل وليس فى الخـــارج • وأن الخطر هو فى عقر الدار وليس على الحـــدود • والخـــارج ينتهز الفرصـــة فقط •

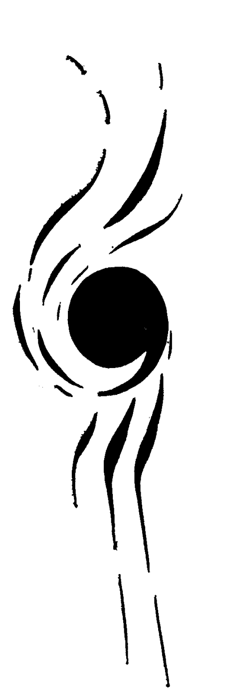
مرة أخرى ، تعود ذاكرتى عشر سنوات الى الوراء ، حيث رحلتى للهند •

وجدتنى أستعيد منظر البقرة التى تســـير فى الطريق ، حرة • يتوقف لهـــا الناس لتمر بسلام • ومنظر الفيـــل الابيض المنطلق على الخضرة بعيداً عن « نيودلهى » •

وجدتنى أستعيد رائحة البخور الهندى ، رائحة جوز الهند ، رائحة التوابل ، رائحة الشاى الهندى ، وقد اختلطت برائحة خامسة لا تتناثر الا فى الهند .

تعودنا على أن التاريخ موجود فى المجلدات القديمة والكتب المتراكم عليها التراب ، الهند — كعادتها تدهشنا . فاذا بنا بكل الحواس الخمس ، نرى ونشم ونلمس ونسمع ونتذوق ونلتقى بالتاريخ « الرائحة الخامسة » ، فى كل لحظة وفى كل طريق .

* * *



نرفض تجـارة الأجســـاد

اجتمعت خمس وعشرون امــرأة تمت دعوتهن بصفة شخصية لتمثيل عدد من دول العــالم الثالث فى أمســتردام عاصمة هولنــدا ..

دعيت الى هذا المؤتمر الذى يناقش « صــورة المرأة فى العالم الثالث » ، وقدمت ورقة عن صورة المرأة المبدعــة خاصة فى مجــال الكتابة .

كان تركيز المؤتمر الاساسى هــو كشف دور وســائل الاعلام المختلفة فى بلاد العالم الثالث والى أى مــدى يتفق هذا الدور واحتياجات التنمية والتغير الاجتماعى .

ويمكن تلخيص أهم المناقشات التى دارت على مــدى ثلاثة أيام فى المعهد الدولى بأمستردام فى أن وسائل الاعلام اختلفة دورا خطيرا فى تسوية صورة المرأة ، ليس فقط عن طريق تدعيم الادوار التقليدية المحصورة داخل المنزل ولكن فى خلق نظرة غير انسانية تستخدم جمال وجسد المرأة فى دفع القيم التجارية . وكان أبرز مثال هــو استخدام جســد المــرأة فى الاعلانات الرأسمالية للترويج للسلع وجذب العملاء .

هناك أيضا التناقض بين هذه القيم التجارية التى تعرى المـرأة وتستخدمها كأداة جنس واستثمار وبـين التقاليـد والقيم الدينيـة التى تدعـو المرأة الى الاحتشام • هـذا التناقض له أثره الخطير فى خلق الشك والبلبلة عنـد الشباب من الشبان والفتيات على حـد سواء • بالاضافة الى أنـه يدفعهم الى قنـوات انحـراف تعوض الاحسـاس بهـذا التناقض •

وأكـدت كل المشـتركات أن الافـلام والتمثيليـات التى تغرق التليفزيون فى بلادهن ، يأتى أغلبهـا من العالم الغربى وعلى الاخص من الولايـات المتحـدة الامريكية • وهى مواد درامية تعرض نمطا للحيـاة يثير الاغتراب عن الواقع الفعلى المعـاش • هـذا النمط يؤدى الى الشـعور بالاحباط والغضب وأيضـا يعمل على تشـويه التراث الفنى والحضارى لكل شعب •

وفى الوقـت الذى تحتـاج فيـه بلاد العالم الثالـث الى عمليات التنمية الحقيقية والتغيير الاجتماعى فان وسائل الاعلام يقع عليهـا مهمة المساهمة فى تقديم كل ما يخـدم أولويات هـذه الفترة التاريخية • فهى ليسـت فقـط أداة ترفيه أو وسـيط لترويج نمط حيـاة مختلف يتذبذب ما بين

صور الخيانات الزوجية وجرائم العنف والقتـل . بـل أداة تغـيير الى القـيم الايجابيـة المرتبطـة بماضى وآمـال كل شعب .

وكان هنـاك حـرص على توضـيح ان الاهتمـام بالجمـال انما هو قيمة فى حد ذاته . ولكنه قيمة للرجـل والمرأة على حـد سواء . وهو قيمة يسعى اليها الانسـان بفطرته المحبـة للجمـال ولكن ما يحـدث هـو انه قيمـة تطالب بهـا المرأة من أجـل أغراض تجـارية أو جنسـية تعوق تطورها وانسانيتها .

بعض النسـاء السود اللائى يمثلن عدد من دول أفريقيا أو اللائى من أصل افريقى ويعشن فى هولندا أثرن مشـكلة التفرقة بين النساء البيض والنساء السود . وأكدن أنه بالاضافة الى عناصر التفرقة الواضحة فى فرص التعليم والعمالة والنظرة الاجتماعية ، فان وسـائل الاعلام تعمل بدورها على تدعيم هذه التفرقة . فتظهر المرأة ذات البشرة الملونة فى صـورة سلبية كأن تكون خائنة أو عميلة أو شريرة . وتصـور دائما فى وظائف دنيا لا يقبل عليهـا النساء البيض . وقد طالبن باتخـاذ الوسائل السريعة لمقاومة هـذه التفـرقة المؤسسة على اللـون .

كـذلك دارت مناقشـة حـول السياحة القائمـة على الجنس وهى التجارة المنتشرة فى بلاد مثل تايلاند ، الفلبين ، اندونيسيا • وأوضحت النساء من هذه الدول كيف تستخدم المرأة فى ترويج السياحة وجلب العملة الصعبة • وأوضحن كيف تساهم الدولة فى خلق هذا المناخ من خـلال القوانين وطبـع النشرات السياحية التى تسهل على السياح الاتصال بهؤلاء النساء من أجـل المتعة والترفيه •وقد أثارت هـذه المناقشـة حماس الهولنـديات وعارضن موقـف حكومتهن من تقنين الدعارة • وقالت احداهن « ان هذا الموقف ببساطة يجعـل من الحكومة قوادا قانونيا » •

وكان هنـاك امـرأة من نيكاراجـوا ، أوضـحت أن الاضطرابات السياسية التى تغذى الآن فى بلدها ، تصيب كلا من المرأة والرجل بنفس المشـاكل وتلقى عليهما مهمـة التصـدى لهذا الغزو • ورغم أن المرأة هناك بحكم الظروف تتدرب على حمل السلاح وتكافح جنبا الى جنب مع الرجـل وتترك أطفالهـا فى معسكرات خاصة خلقت لهـذا الغرض ، الا أنهـا تتخوف من أنه بعد الوصـول الى حالة الاستقرار قد تحـدث ردة وتطالب النساء بتقليص دورهن فى الحيـاة العامة • وأشارت هنـا الى تجـربة الثورة الجـزائرية • وأكدت أن بلادها الآن تعيش مرحـلة مصيرية تحـدد الموت

أو الحياة لكل من الرجـل والمرأة على حـد سواء • وقـد طالبت المؤتمر بجمع توقيعات ترسـل الى المسئولين احتجاجا على موافقة الكونجرس الامريكى الاخير بزيادة المعـونات العسكرية لحكومة السلفادور لقتل المزيد من الرجال والنساء فى نيكاراجوا !

بالنسـبة للـورقة التى قدمتهـا عن صـورة المـرأة المبدعة • فقـد ركزت على النظرة الاجتماعية التى تعتبر ان الابداع الاساسى للمرأة هو داخـل المنـزل • بدليـل أن مشكلة التوفيق بين الابداع داخل المنزل والابداع خـارج المنزل لا تثار للرجل أبدا •• وفى أغلب الاحيان تضطر المرأة الى الاقتصار على العمل داخل المنزل أى خلق الاطفال وتلبية احتياجات الزوج •

فابداع المرأة فى العمل أو الفن يجـب أن ينظر اليـه على أنه ضرورى وأساسى لوجودها وتنمية طاقاتها الانسانية والمساهمة فى تغير الحياة تماما كما ينظر الى ابداع الرجل ، وهنـا العدل الحقيقى •

ولكن وسائل الاعلام تلعب دورا من خلال ما تقـدمه من مواد دراميـة لتكريس ابداع المرأة واعطائه الاهميـة الاولى فى « المملكة المطبخية » • على حسـاب الاقلال من أهمية ابداعها الفنى أو العملى خارج المنزل •

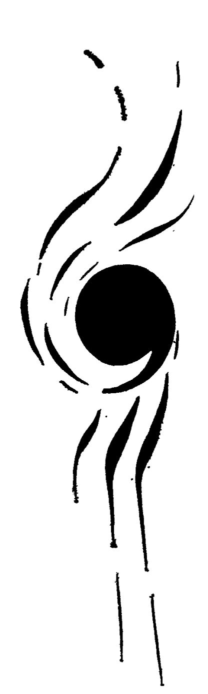
وفى الجلسة الختــامية للمؤتمر اتفــق على طبع كتيب (وهو تقليد متبع بعــد كل مؤتمر) ، يضــم كل الاوراق المقــدمة مع تسجيل كل المناقشات المثــارة • بالاضــافة الى هذا فقد اقترح ادراج بعض النقــاط التى رأينــا أنهــا وان لم تكن قد نوقشت بشكل مكثف ولكنهــا تستحق الابراز كمحاور أساسية وهى :

— التضــامن بــين النســاء على المســتوى المحــلى والعــالمى •

— العلاقة بين القهــر الطبقى والقهر المبنى على اللــون الجنس العنصرى •

— دور المرأة فى اســتخدام وســائل الاعــلام الحالية وامكانيات الحركة المكفولة لها فى تقديم الصــورة الحقيقية لقدراتها وتصحيح التشــوه القائم على الجنس •

* * *



قضـــايا المــرأة

بين الحـــوار والرقص

الطريق الى المطـار يبـدو فى الفجـر أكثر اتسـاعا لاحلامى .. أكثر قدرة على احتواء امتداد نفسى . أعشـق تلك اللحظـات غـير المتكونة بعـد . هى ليـل ترحـب بمداعبات النهار ، المستأذن برقة فى المجىء .. تقترب من الشمس ولا تطولها .

اندهش فأنا دائما أسافر فى الفجر .. ولا أنام الا مع الفجـر وأكثر لحظات حقيقتى تشرق مع الفجر .. ولحظة معرفتى لون عينيه كانت فجرا ..

انتهت اجراءات الوصول الى صـالة الانتظـار أسرع وأسـهل مما توقعت . وجـدت نفسى بحقيبتى الصـغيرة السوداء ، المعلقة على كتفى ، نخضع لعملية تفتيش من قبل امرأة جالسة فى مدخل الصالة ، ملامحها حـادة وصـوتها مرهق وأمين شرطة بيده جهـاز يصدر أصواتا وأضواء . تبعثرت أشيائى وأوراقى وانسانيتى ، ولاننى لم أكن أحمل الا رغبتى فى السفر فقد تركونى أمر . جلست على مقعـد أصغر لامع ملتصق بالارض وفى نفسى رثـاء لمن قامـوا بتفتيشى . فرغبتى فى السفر التى أحملها داخلى أخطـر من قنبلة قد تحملهـا حقيبتى .

جاء أوتوبيس المطار ينقلنا الى الطائرة التابعة للخطوط الفرنسية . تحرك الاتوبيس ومعه تحركت خواطرى نحـو شروق الشمس امتـلأت نفسى بالتوقعات . لكننى فـورا أوقفت تسربها الى كيانى ، وتذكـرت قول شـاعر الهنـد (طاغور) « لا تتوقع شيئا حتى لا تصـاب بخيبة أمل » . عفوا (طاغـور) ، الا فى السـفر . فالتوقع فى السـفر هو كارت العبـور الى مقعد الطائرة .

وعلى مقعد الطـائرة المعلق بـين السـماء والارض ، تذكرت الارض المدعـوة اليها وتذكرت سـبب الدعـوة ، فأصابتنى رعشة معتادة عليهـا كلما هاجمنى خوف . فأنا ذاهبة الى شمال أوروبا وبالتحـديد الى (فيسبى) عاصمة جـزيرة جوتلاند التى تبعد ساعة بالطائرة عن استوكهولم عاصمة السويد . والسبب ، المشاركة فى مؤتمر عن المـرأة وقضـايا تنظيم الاسرة . خفت لأننى لست معتـادة على المؤتمرات الدولية ، فهذا هو ثانى مؤتمر دولى ادعى اليه . كمـا أننى لا أعرف عن السويد الا انجريد برجمـان وبورج بطـل التنس وفرقة الابا الموسيقية وشهرة الغابات الممتدة كمـا أننى بحـكم بعض قـراءاتى عرفـت ان حوسـتاف ملك السويد يتمتع باستقرار سياسى نسبى ، يهيىء مناخه الحزب الاشتراكى الديمقراطى الذى يحـكم البـلاد على

مدى الثلاثين عام الماضية • والذى أعرفه ويرتبط الى حـد ما بموضـوع المؤتمـر أن السـويد وصـلت الى كثير من الحريات خاصة فى العلاقة بين المرأة والرجل وعلاقة المـرأة بأطفـالها وأسرتها • كنت خائفة ألا تكفى هـذه المعـرفة البسـيطة ، المتناثرة والبحث الذى أعددته للمشـاركة فى المؤتمـر •

فى فندق « فيسبى » المطل على بحـر البلطيق كانـت الاقامة • وفى احدى قاعات الفنـدق التى تسـمح نوافذها برؤية بيـوت صغيرة هرميـة الشـكل ، وخضرة تكسـو الطريق ، كانت جلسات المؤتمر التى بدأت صـباح الاثنين ٢٤ أكتوبر ١٩٨٣ وانتهت مساء الجمعة ٢٨ أكتوبر ١٩٨٣ •

كانت أول جلسة للتعارف •

التف حول المائدة الخضراء المعـدة بأجهـزة التسجيل وأقـلام ودفاتر بيضـاء ، خمس وعشرون امرأة وجهـت اليهم الدعوة بصفة شخصية من العالم النـامى المتبعثر فى افريقيـا (أنجولا — السنغال — كينيا — سوازيلاند — السودان — مصر — تنزانيا — زيمبابوى — الجـزائر — موزمبيق — المغرب — الصومال — ناميبيـا) رجل واحـد من السنغال وأخر من السويد عمل فى موزمبيق •

بالاضافة الى أربع نساء يمثلن الجهـة المنظمة للمؤتمر « سـارك » الوكالة السويدية للتعـاون البحثى مع الدول الناميـة .

بجانبى دفتر آخـر لملاحظـاتى . كتبـت شـيئين . « أعجبنى الطبيب السويدى الهادىء . القوام الفارع والبشرة السـوداء يشدان الاهتمام » .

بعد التعارف ، تم تقسيمنا الى مجموعات عمـل حيث تضم كل مجموعة تلك البحـوث ذات الطابع المشترك والتى فى نفس الوقت تنتمى الى أحـد المحـاور الثلاث الاساسية للمؤتمـر وهى :

* العلاقة الجدلية بين الانتاج الاقتصادى المادى وعملية الانتاج البشرى (التناسل) .

* المعنى الاجتماعى والوظيفة الاجتماعى لكل من مفاهيم الجنس والخصوبة والعقم .

* كيفية انتـاج المعرفة والتحكم فيها للنساء خاصة تلك المعرفة المرتبطـة بقرارات تنظيم الاسرة ومحـددات الخصـوبة .

وكان نظام العمل من التاسعة صباحا حتى الواحـدة

ظهرا ثم من الثانية حتى السابعة مساء • وعلى كل مجموعة عمــل تحــديد وقت كاف بحيث يستطيع كل عضو تلخيص بحثه واثارة ما يريــد من نقــاط قبل فتح الباب للمناقشــة والتعــليق •

بالنسبة للمحور الاول فان المناقشــات دارت حــول نقطتين أساسيتين •

أولهما : العلاقة التفاعلية بين الاقتصــاد والجنس • بمعنى أن الجنس هو أحــد مظاهر السلوك الانسانى الذى لا يتأتى من الفــراغ بــل يعتمد على التقاليــد والعــرف وأيضــا وبشــكل أساسى على الســلوك الانسانى فى انتاج الثروة المادية • بحيث يتفق كل من نوعى السلوك الانسانى لتدعيم حضـــارة معينة فى وقت تاريخى معين •

ثانيهما : ضرورة اعادة النظر فى تقييم العلاقة التقليدية التى تسلم بأن هناك تناسبا عكسيا بين التنمية والتحضر من جهة وتنظيم الاسرة • ودلت التجــربة من السنغال أن بعض أنماط التحضر قد أدت الى مزيد من الانجــاب • المهم هو وضع التنمية والتحضر فى اطار اجتماعى شامل يجعلنا ندرك أى نوع من التنمية والتحضر ولمن •

كان المحــور الثانى من أكثر المحــاور التى أثــارت

المناقشات . وأعتقد أن السبب وراء هذا يكمن فى أنه لمس المفاهيم والقيم التى تعيشها المرأة بشكل يومى وحيوى . فمثلا نوقش ختان المرأة وكيف أنها عملية ليست فقط مضرة صحيا ولكنها أيضا تستخدم لقهر وكبت الحياة الجنسية ، والاحساس الجنسى لدى المرأة . ودلت التجارب من السودان والصومال على انتشار هذه العملية . أما طبيب أمراض النساء السويدى الذى عمل فى موزمبيق لمدة عامين ، أثار نقطتين . الاولى تتعلق بفقدان فاعلية وسائل منع الحمل خاصة الحبوب مع الامهات اللائى يستخدمن اللبن الطبيعى لاطعام المولود . والثانية تتعلق بالامراض الجنسية المنقولة الى المرأة وكيف انها تعوق نجاح وسائل منع الحمل فى تأدية وظيفتها .

ولمحت امرأة من زيمبابوى ضمن هذه المجموعة صامتة طول الوقت . تنظر حولها فى هدوء لكن بشرتها السوداء وعظام وجهها النحيف يعكسان الاهتمام . فجأة طلبت الكلمة وقالت : « أريد أن اناقش أن تغيير مفهوم الجنس والخصوبة والعقم يرتبط بتغيير الادوار التقليدية للمرأة والرجل والاطفال داخل الاسرة » . تأكدت أن ليس كل الصمت معناه فراغ الداخل .

جاء يوم الاربعاء موعد المحور الثالث وقد

أثــار مناقشــات ســاخنة ترجــع — فى رأيى — الى أن الموضــوع المثار وهــو تحــكم المرأة فى المعــرفة ، يمزج بين المحورين الآخرين ويجسد أساس المشكلة التى تواجهها المرأة — وهى انها جهــاز اســتقبال لقرارات تجبرها على اتخــاذ أنماط معينة من السلوك الاجتماعى حتى فى أخص شئونها كالانجــاب .

كان البحث المقــدم من المرأة المغربيــة عن التقسيم الدولى للتكنولوجيا والمعرفة وكيف ان مثلمــا تحتكر بعض الدول انتاج المعرفة فان داخل كل دولة أيضا مجموعة من الافراد تحتكر انتاج المعرفة وأيضــا تتحكم فى استخدامها . وأن الاحتكار الدولى والمحلى يلتقيان دائمــا عنــد نقطــة مشتركة من المصالح وكل منهما يغذى الآخــر ويعمــل على ابقــائه .

وقد ناقشت المرأة القادمة من جنــوب افريقيا تنظيم الاسرة فى علاقته بحرب الاستقلال الدائرة خاصة فى ناميبيا قالت أن المعيشة فى المخيمــات والمعسكرات تقتضى أخــذ قرارات سريعة حاسمة لا تتعلق فقط بالوضع الحالى للمرأة ولكن تحسين وضعها العام فى ناميبيــا مستقلة أيضا .

أما تجربة الجزائر فقد أثارت قضية خطيرة وهى كيف

أن النســاء يمكن استخدامهن وفقـا لطبيعــة الظـروف الاجتماعية • وتم الاشــارة الى الثــورة الجزائرية التى شجعت مشاركة النساء ونزولهن الى المعركة بجانب الرجـل وبعد الاستقلال واستقرار الوضــع السياسى بــدأت ردة نسبية تحاول تقليص مشاركة المرأة فى الحياة • ففى أى حال لا تشــكل النساء الا انعكاسا للمجتمع •

بالنسبة الى البحث الذى قدمته وهو موقف الفــلاحات المصريات فى احدى قرى محافظة القليوبية من شعار تنظــيم الاسرة وهو « أسرة صغيرة وأسرة أفضل » •

فقد كانت أهم النتائج التى توصلت اليها هى أن الاسرة الكبيرة لاتزال تعتبر فى الريف المصرى هى الاسرة الافضل • والســبب ليس فقط اقتصــاديا بمعنى أن الاطفــال يمثلون عاملا اقتصــاديا للاسرة • ولكن أيضــا تدخــل اعتبــارات اجتماعية مثل أن العدد الكبير هو فى الواقع تأمين اجتمــاعى للاسرة الريفية خاصة فى أوقات الشيخوخة والمرض • كما أن المرأة تنافس المرأة الاخرى بانجــاب عدد أكبر من الاطفال •

ويزيد الطفل الاضاف فى مكانة الزوجــة فى عين الزوج فلا يهرب منها الى أخرى ولهــذا فالاطفــال تأمين للمــرأة ضــد الطلاق والخوف من المستقبل فى غيــاب الــزوج •

ولقد سألت ثلاثين فلاحة عن وسائل منع الحمل فأكدن انها متوفرة بالوحدة الصحية (حبوب — لوالب) ولكن فقط نسبة قليلة هى التى تستخدمها • واتضح من أن هذه النسبة (٢٠ من ٣٠) هى التى تلقت تعليم أو التى تعمل بجانب الحقل شيئا آخر كالخياطة فى المنزل • ولكن هناك مشاكل فى الاستخدام مثل حدوث صداع مستمر أو نزيف وأحيانا حمل • ورغم تأكيد الطبيب المقيم فى الوحدة الصحية أن هناك عازلا للرجال ، الا أن الرجل الريفى يعتقد أن استخدام العازل يقلل من المتعة الجنسية ويعيب رجولته • وبالتالى فان عبء تحديد الخصوبة يقع فقط على المرأة • هذا بالطبع اذا كان الزوجان يريدان تنظيم الاسرة أساسا • وقد أثرت بعد عرض نتائج البحث أن قضية تنظيم الاسرة يجب أن تعالج فى اطار من التنمية الحقيقية لكل من الرجل والمرأة بحيث يصدر القرار من الانسان نفسه وليس بقرار أو قانون يناقض الحياة الفعلية التى يعيشها •

وكان يوما الخميس والجمعة تجميعا لكل الافكار ومحاور المناقشة حتى تصب فى تصور مبدئى لاولويات البحث التى تحتاجها الدول النامية المشتركة وتحددت كالتالى :

— الثقافة الجنسية منذ الطفولة •

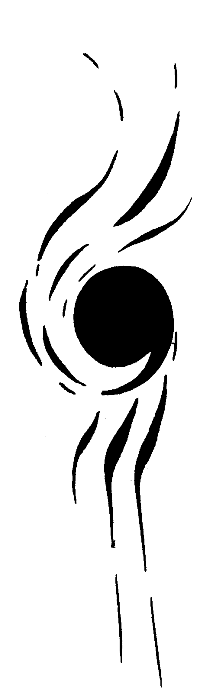
— توفير وسائل منع الحمل وتوفير المعرفة باستخدامها •

— اشتراك النساء فى قرارات المجتمع .
— قوانين الاحوال الشخصية .
— ختان المــرأة .
— التعليم والعمل وتحرير المرأة .
— وفيات الاطفال فى سن مبكرة .
— التنمية الريفية .
— الادوار التقليدية للمرأة والرجل داخل الاسرة .

وكان مســاء الجمعة حفــلة وداع بدأت بالعشــاء ، ثم جاءت فرقة سويدية تمثل الرقص الشعبى بملابسها الملونة الطــويلة والانغــام الممتدة كالغابات . وكانت المفاجأة حين رقصنا مع هذه الفرقة وكأننا راقصات سويديات منذ المولد . وانطلقت النســاء الافريقيــات بقوامهن الفــارع وبشرتهن الســوداء .

جعلنا الرقص نشعر باقتراب أكثر . وجعلنى أنا شخصيا أحب أكثر انتمائى الى افريقيا . تلك القارة التى جمعتنــا وتنتظر منا عمل شىء . أتمنى يا أفريقيا ألا يطول انتظارك .

* * *



اطلاق سراح الابـــداع

أصبحنا نعيش فى زمن الاتهامات والمواعظ .

فى كل خطوة على الطريق ، هناك اما حــكم أخــلاقى أو أيديولوجى ينتظرنا ، أو موعظة تصر على التدخل حتى قبل نهــاية الطريق ، ودون المبالاة باثبات شرعية الحــكم والتدخــل .

الشرعية الوحيدة التى تواجهنا ، « اكليشيه » متعــدد الاسماء . مرة يأخــذ اسم « المفروض » ، مرة يأخــذ اسم « المتوقع » ، مرة يأخــذ اسم « المعتاد » . تتعــدد الاسماء والهدف واحــد ، ألا وهو فرض الوصــايا وعرقلة الحيــاة فى حركتها المتجــددة نحو التطور .

تسرب « الاكليشيه » الى كل مظاهر حياتنا .

فهناك « المفروض » و « المتوقع » و « المعتــاد » فى الحب . هناك « المفروض » و « المتوقع » و « المعتــاد » فى السياسة . هناك « المفروض » و « المتوقع » و « المعتاد » فى النظرة الى الدين والنظرة الى المرأة . وهناك « المفروض » و « المتوقــع » و « المعتــاد » فى النظرة الى الانســان وتعامله مع الآخــرين وتعامله مع ذاته ومع الاشــياء .

وتكتمل تأثيرات هـذا الثالوث (المفروض والمتـوقع والمعتـاد) ، حينما تتسرب الى الابداع .

ويجدر الاشارة الى أمرين .

الأمر الأول ، أن التدخـل بالاتهـام أو بالموعظة لـه خطـورته فى كل مجالات الحياة . وهى خطـورة متصـلة الأبعـاد . بمعنى أنه من الصعب تصـور انسان له نظـرة انسانية مرنة ، متفتحة فى الحـب . وله نظرة لا انسـانية متعصبة ضيقة الافق فى الدين أو السياسة أو وضع المرأة . فالانسانية والمرونة والتفتح ، ليست صفات قـدر كونهـا فلسفة تحـدد النظرة العامة الى الحياة .

بناءاً على هذا ، فان تركيز الحديث على النظـرة الى الابداع ، يلقى الضوء بشكل أو بآخر ، بدرجة أو بأخرى ، على النظرة الى بقية أمـور الحياة .

بالاضافة الى هـذا ، فـان التركيز على النظـرة الى الابداع ، ينبع من ممارستى للكتابة الفنية . ومن متابعتى — بقدر معقول — لبعض الندوات التى عقـدت لنقـد بعض الأعمال الأدبية والفنية المعاصرة . وأسفرت المتابعة عن رغبة شـديدة فى الوقوف ضد منطق النقـد القائم على اشـهار الاتهـامات والقاء المواعظ على الابداع .

الأمر الثانى ، أن هناك نظرة الى الابداع والنقد ، تتسم بالمـرونة والتفتح والفهم العميق سـواء من جانب الناقـد المتخصص أو المتلقى العادى • لكننـا نرى أنهـا الاستثناء وليست القاعدة •

ما هى الخطـورة :

ان خطورة التدخل باصدار أحكام أخلاقية وأيديلوجية والمـن بالمواعظ فى مجال الابداع ، لا ترتبط فقط بانتزاع حـق غير شرعى فى لوى عنق الاشياء وفقا للانسـان الذى يصـدر الحـكم ويمن بالموعظـة • أو بنسـيان — وفى الأغلب تناسى — قانون النسبية وقانون التغير • ولكنهـا خطورة تمتد لتفسد حياتنا الابداعية • فتحول دون نمـو ذوقنا الفنى وتعطل احساسنا بالجمـال • وأصل الخطورة — فى رأينا — ينبع من فهم خاطىء لكل من عملية الابداع وعملية النقد •

❋ الشكل الغالب من النقد

يعتمد هذا الشكل — كما ذكرنا من قبل — على محورين أساسيين ، أولهمـا اصدار حـكم اتهامى وثانيهما القـاء المواعـظ •

❋ ما هى الاتهـامات ؟

كثيرا ما نسمع أن لوحـة ما لرسام ما ، أو أن قصيدة

أحد الشعراء ، عمـل غير أخـلاقى يدعـو الى الاباحية والفوضى • نسمع أن أعمال أحد الكتاب ، أعمال ذاتية ، تفتقد مضمونا فكريا وغير مرتبطة بمشاكل الجماهير الغفيرة • نسمع أيضـا أن هذه قصة رجعية ، وتلك تقدمية • ونسـمع أن هناك قصـائد أو روايات معقدة وغامضة هنـاك أيضـا الاتهام بأن المبدع يكرر فى أعماله الموضوعات ذاتها ، ويتحرك داخـل الأجواء ذاتها • واذا واجهتنا أعمال ابداعية تتسم ببعض الجـدة أو الحداثة ، لا نرى التفرد والأصالة ، لكننا نرى الأمـر محاكاة لبعض المبدعين الرواد أو تأثـر واضح للابداع السائد فى بعض المجتمعات الأخرى •

وفى أحيان غير قليلة ، يتخذ الاتهام نبرة تطفلية لوجود الميـل للربط بين شخصية المبدع وحياته الخاصة وما يبدعه •

وجدير بالذكر أن هذا الربط يتمتع بجاذبية أكبر عنـد تناول ابداع المرأة • بل ان هناك اتجـاها متكاملا مميزاً فى الاتهـام والموعظة تخصص فى مخاطبة ابداع المرأة • ولسنا فى مجـال الخوض تفصيلا فى تحليـل هذا الاتهام ، فهـو يصلح لأن يكون محوراً لموضوع مستقل بذاته • ولكن تكفى الاشـارة الى تساؤل سمعته كثـيرا وهو : « لمـاذا أصلا تبـدع المـرأة » ؟!

هذه هى أبرز أشكال الاتهامات التى يطلقهـا النقـد •

بدقة أكثر ، الاشكال التى سنحت لى الفرصة بالتعرف عليها •

وتبدأ المرحلة الثانية المكملة •

فبعد وضع العمل الابداعى فى قفص الاتهام ، نصــل الى الوعظ والارشاد • ويقولون أن الهدف هــو أن يــدرك المبــدع « أخطاءه » حتى تجىء ابداعاته التالية أكثر نضجا وتطورا وأكثر قربا من أحــلام الجماهير الغفيرة •

وينتهى النقد بالتنبيه الأقرب الى التحذير ، بأن هذه الموعظة ، هى ممر ضرورى لابد للمبدع من عبوره ، هــذا اذا كان حريصــا على اضفاء أى قيمة حقيقية على ابداعه • هنا يظهر الناقد بصــورة الحريص حرصا شديدا على دور المبدع وقيمته وأصالته • وفى الوقت ذاته ، يظهــر بمظهر المحافظ على التراث الابداعى • وعلى هذا ، فيجب أن يتقبل المبدعــون هــذا النقد بصدر رحــب ودون أدنى شــعور بالضــيق •

أستعيد الآن الانفعالات التى رأيتها على وجوه المبدعين فى ندوات النقد • بعضها دهشة ، بعضها استياء ، بعضها شــك ، بعضها ابتســامة هادئة • ولا أعتقد أن الابتســامة كانت طاعة للنقــد فى ألا يشعر المبــدع بالضيق • لكنهــا أرسلت تعبيرا بثقــة جميــلة نادرة بالنفس ، دون مبــالاة بالاتهــام وبالموعظة •

* الخطيئـــة :

ومن أكثر الأمور اثارة للدهشة فى هذه الندوات ، أنهـا تناولت تقريبـا كل شىء يمكن أن يقـال ، الا شىء واحـد غاب كأنه خطيئة لا تقرب . وأقصـد به « متعة التذوق » .

كيف فى مناقشة عن الابداع ، تغيب كلمة « الجمال » ؟!
سؤال حائر لا يستطيع المرء الفرار منه .

وبدا الأمر فى غاية القبح والشذوذ .

* ما هى القضيــة

نحن نعتقد أن القضية فى مجـال الابداع ، تختصر فى سؤال واحـد : هل العمل الذى يواجهنا فن أم لا فن . ابداع أم لا ابداع . اذا كان العمـل لا فن أو لا ابداع ، لا نلتفت اليه ونستبعده تماما . أما اذا كان فنـا أو ابداعا ، نتقبله كمـا هو بمقاييسه الخاصـة ، نحتضنه كما هو بلغتـه المتفردة ، نحترم الدوائر التى اختارها فى التعبير والخلق ، ونتذوق ما يحـويه من « قيم تشكيلية » جمالية ، أنتجها لقاء منسجم بين شكل معين ومضمون معين . أيا كان هذا الشكل وأيا كان هذا الموضـوع . ان النقـد الذى يصـدر الاحكام والاتهـامات ويطـلق المواعـظ ، يدخـل الى . العمـل الابداعى ، محملا بمسبقات موروثة يريد رؤيتهـا فى العمل لكنـه لا يريد رؤية العمل ذاته .

ولا داعي للقلق •

فالعمل (طالما اعترفنا بأنه ابداع) ، مثلما جـاء حاويا للمتعة ، سيجيء حاملا بمضمون أو فكرة • لكنـه يقـول مضمونه ويعبر عن فكرته بشكل يختلف جذريا عن طريقـة تعبير الصحف ومنشورات التنظيمات السياسية • طريقة تبدأ وتنتهى بالجمـال •

ان المضمون الفكرى لم يكن أبدا جوهر الابداع •

أولا ، لأن المضـامين والأفكار معـروفة ومكتشـفة ومستهلكة وتحتل مساحات الجرائد والكتب • فما الفضـيلة اذن فى الابـداع اذا كان يعتمـد فى جـوهره على الفكرة أو المضـمون ؟

ثانيا ، اذا افترضـنا أن المضـمون هـو جـوهر الابـداع فلمـاذا — فى أحيـان كثيرة — نعيد قراءة قصة أو رواية أكثر من مرة ، رغم معرفتنا بمضمونها منذ المـرة الاولى ، ونظل نستشعر متعة متجددة فى كل مرة ؟ ولمـاذا نسعد بمشاهدة فيلم مرتين ، رغم اتضـاح مضمون الحكاية منـذ المشـاهدة الاولى ؟ وكيف نفسر احساسنا بالطـرب لسماع لحن أو أغنية أو قصيدة ، رغم تكرار الاستماع ؟

ثالثا ، وكمـا قال « فلوبير » ، الأفكار كثـيرة جـدا

ولا حصر لها • لكن المشــكلة أن الاشــكال الفنية الجميلة قليلة جــدا •

جوهر الابداع — بمعنى آخر — ليس ما الــذى تعبر عنه ولكن كيف تعبر عنه •

أيضا لا داعى للقلق على مشاكل الجماهير الغفيرة •

ان سر الابداع يكمن فى المفارقة الجميلة التى تجعــلك الآخــرين فى قمــة كونك أنت • ســـهل ممتنع يلمس ذوات الآخرين ، رغم تعبير المبدع عن ذاته •

ونحن نتساءل فى هذا الصدد ، من هى تلك الجمــاهير التى يجب على الابداع الارتباط بهــا والتعبير عنها ؟

ان الواقع الفعلى لمجتمعاتنا ، يشير الى أن الغالبيــة من الجماهير تعــانى من الاميــة ، وتلهث يوميــا من أجل توفير لقمة العي ش أو سكن أو ايجــاد الحــد الادنى من ضرورات الحيــاة • وهناك — حتى بالنســبة للاقليــة ذات التعليم أو الثقافة — ظروف مادية تحــول دون تكوين الحد الادنى من الحس الفنى المطلوب لتذوق الابداع • ولا نتجاهل طغيان أنواع الفن « الرخيص » الذى يساعد فى تخــريب وعى الانســان أو تعطيــل نمــوه • وفى الوقــت ذاته ، يشــوش على الفن الجيد الذى يضيف الى الحس الانسانى والذوق الجمالى •

هل هذه هى الجماهير التى يطالب الابداع بالتعبير عنها ؟

نحن نفهم ارتباط الابداع بالجماهير على أنــه النزوع الفطرى لدى المبــدع نحــو حيــاة انســانية أجمــل ، أكثر عدلا وخــيرا • وهو أمر يظهر فى أعمال كل مبــدع عظيم • فكل مبدع عظيم داخله انســان عظيم •

نحن نفهم ارتباط الابداع بالجماهير على أنــه كثــافة الصدق التى بها يعبر لنا المبدع ، كيف تتفاعل ذاته مع كل ما حوله فى الوقت الذى يعيش فيه ، وليس فقط تفاعل ذاته مع المشاكل • فالابداع ليس وثيقة تاريخية للهموم والازمات والمشاكل فقط • هو تدفق لا نهائى من الانفعالات والتداعيات النفســية ، تثــيرها العلاقات الانســانية ، تثــيرها مفاتن الطبيعة ، وتفجرها لفتات بسيطة جــدا لا يتوقف عنــدها الا المبــدع •

ولو افترضنا جدلا — وهو أمر صعب — اختفــاء الهموم وحــل المشكلات وانفراج الازمات ، هل فى ذلك الوقــت ، ينتفى الاحتياج الى الابداع ؟ ! هل فى ذلك الوقت ، ستوقف الحيــاة عن انجــاب المبدعين ؟ !

* النقــد كعمل خــلاق

نحــن فى أمس الحاجــة الى نقــــد مختلف ، يجعــك من النــاقد مبــــدعا آخــــر ، ويتبعــد بــه عــن دور القاضى والجلاد والمربى والمحقق البوليسى •

نحتاج الى ناقد له القدرة على تذوق المتعة التى يقدمها الابداع ، وبعد التذوق ، يحـــاول تحليل أسراره الجمالية ، مع تفســـير « فنى » وليس أخـــلاقى ، عن كيفية التقـــاء شكله بمضمونه فى حركة منسجمة عن كيفية تأثره بالعمل : هل فجر فيه ذكرى حب قديمة ؟ هل استعاد معه شجاعة خافية ؟ هـــل انتزع العمل منه ابتسامة غريبة على شفتيه ؟ هل أثار فيه رغبة كانت منسية ؟ الى آخر هذه التساؤلات الابداعية الانفعالية ، التى لا علاقة بها بالتساؤلات البوليسية الارهابية .

نحن نحتاج الى نقد يدخـــل الى عالم الابداع ، متجردا من كل الموروثات الجامدة عن الابداع والنقد .

نحتاج الى ناقد له القدرة على استقبال العمل الابداعى باللغة التى يتكلمها وليس باللغة التى تعلمها ويجيدها ويفضلها الناقد هذا هو الطريق الوحيد الذى نستطيع معه اكتشـــاف الجـــديد والممتع الذى خلقـــه المبدع .

فى أشد الحاجة نحن الى نقد يكون شبيها بالابداع نفسه بـــل شبيها بالحياة نفسها . فكل من الابداع والحيـــاة ، كـــون متفتح ، دائم التجدد ، متداخـــل الابعـــاد ، ملىء بالأسرار والكنـــوز . وليس من الممكن أو من الجميـــل ،

تطبيق الجامد على المتجدد ، أو تطبيق الموروث الامس على المولود اليوم • لا يمكن فتح باب الحيـاة بمفتاح المـوت •

بهذا المعنى ، يتحول النقد من وظيفة أو حرفة ثابتـة تورث ، الى أفق دائم التحـول • يستطيع معه الناقد أن يضيف من رؤيته الخاصة الى الابداع ، فيزيد من ثرائه ، بدلا من اهانته والحط من قدره •

* اطـلاق سراح الابداع

كان من الممكن — بطبيعة الحال — الدخـول تفصـيلا فى الرد على كل اتهـام أو موعظة توجـه الى الابداع • لكننا سنكتفى برد عام يصلح لاسـقاط كل الاتهامات وابطال مفعول كل المواعظ •

ان اصدار الاحكام والاتهامات التى تقود الى الموعظة — أيا كان نوعها — لا تصح ولا تكتسب أى معنى ، الا فى حـالة مواجهتنا بأفعال ، أو شكل ما من أشـكال السـلوك البشرى • فهل يصدر عن الابداع أفعال ؟

يجيب « بندتو كروتشه » (*) فيلسوف الفن بقوله « أن الابداع يخلق صورا فنية ولا يخلق أفعـالا • والصـورة الفنية من حيث هى صورة لا يمكن أن تحمـد أو تذم من الناحية الاخلاقية • وليس هناك قانون جنـائى يحكم على

(*) بندتو كروتشه « المجمل فى فلسفة الفن » ترجمة وتقديم سامى — الدروبى — الاوابد — دمشق ١٩٦٤ ص ٣٥ ، ٣٦ .

صورة بالسجن أو الاعـدام ، بـل ولا ثمة حكم أخـلاقى يمكن أن يصدر عن انسان عاقل ويكون موضوعه صورة » .

بهذا الفهم ، نطلق سراح الابداع من السجن الـذى اعتقلناه فيه ولم يخلق له .

بهذا الفهم ، قد نستطيع فى يوم ما من الايام ، تقبـل الابداع كمـا نتقبل شروق الشمس ، واختـلاف البشر .. محتضنه كما نحتضن سر الحياة وسر العشق وسر المـوت . ونستمتع به كما نستمتع بتحليق الطيـور ومواسم الربيـع والمطـر .

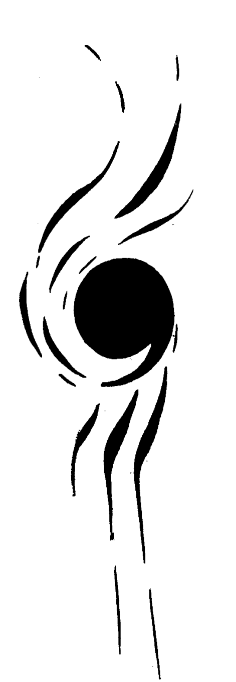
يبقى تساؤل أخير .

لـماذا يتجه النقد الى أعمال ابداعية ، يرى أنهـا ممتلئة بالعيوب ، لا توفر المتعة الجمالية ، لا تضيف شيئا للناس ، وتصلح تربة خصبة لاتهامات متنوعة وتحتاج الارشـاد ، فيرهق نفسه بمتابعتها ، وعقد ندوات للحديث عنها ؟

أليس من المنطقى أكثر والمفيد والاجمل ، أن يدخر الجهد والوقت وتركيز الفكر فى عقـد نـدوات تتبـادل الخبرات الجمـالية ، التى تركهـا العمل الابداعى فى نفوسنا ؟

ألا يبدو التساؤل وجيها ؟

* * *



الارهـــاب باســـم الـــدين

فرق كبير بين الدين واستخدام الدين •

فرق كبير بين الدين فى جوهره الانسانى الذى يدعو الى الحرية والعدالة والمحبة والمساواة ، وبين استخدام للدين يستهدف استغلال الازمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والاخلاقية ، أو التنفيس عن بعض الاضطرابات النفسية أو كليهما معا ، لفرض رؤية وحكم ومصالح جماعة محددة من البشر •

والدين بطبيعته يسهل استغلاله على هذا المنوال لانه كان — ومازال — وسيظل من أكثر الموضوعات تميزا بالحساسية ، خاصة لو تفشى الجهل وازدادت حدة التناقضات الاجتماعية •

ولا أحد يمكنه الآن ، تجاهل المظاهر العديدة التى بدأت تنتشر فى مجتمعنا لتحول الدين الى سوط غليظ يضرب ويتهم ويهدد كل من يريد الاصلاح والتغيير • بل الاخطر أنه يضرب ويتهم ويهدد كل من يحاول — على أقل تقدير — ألا نعود الى الوراء •

وما حدث فى كلية الطب أخيرا ليس هو نهاية السلسلة فى تلك المظاهر • بل قد يكون فاتحة لمظاهر أكثر عنفا وأشد

ارهابا ،مالم يحـدث رد فعـل قومى مستنير وواع بأبعـاد هذه الظاهرة ٠

وما نشهده اليوم ليس بجـديد ٠

فالتاريخ يدلنا على أن فترات الازمات أو فترات التحول فى حياة الشعوب (حيث الفرصة أكثر ملاءمـة لاستغلال الناس) ، هى أكثر الفترات التى تشتد فيهـا النعرات الدينية المتطرفة التى تحـاول هدم مكتسبات الماضى واعاقة خطوات التقـدم ٠

ولا نعـرات بعيـدة كل البعـد عن معنى الـدين فى جوهره ، فانها تضطر الى استخدام العنف والارهاب للتأثير وكسب التأييد ٠ فهناك دائمـا علاقة عكسـية بين درجـة الجماهيرية والشرعية ودرجة ممارسة العنف والارهاب ٠

وهذا ما كان واضحا فى تصريحات عميد كلية الطـب ، حيث أوضح أن الجماعات الاسلامية داخل الكلية ترفض كل حـوار عقلانى ٠ فهى تدرك جيدا أن أبسـط قواعد العقل وأبسـط قواعد الدين تناقض ما تقـوم به وما تدعـو اليه ٠ وتعـرف أن الحـوار سيكشف نوايـاها الحقيقية وفهمهـا الخاطىء والسطحى للدين ٠

كما يدلنا التاريخ على أن كل الاتجـاهات التى تستهدف

العودة بالمجتمع الى الوراء ، لابد وأن تصيب قبل أى شىء أضعف فئات المجتمع وأكثرها تعرضا للقهر وأكثرها غيابا عن مراقع التأثير وهى النساء والفقراء .

ولذلك نجد دائما هذا الارتباط العضوى بين انتشار النعرات الدينية المتطرفة ودعوات مثل تغطية المرأة وعودتها الى البيت .

وهنا يصدق ما قيل بأن النساء هن المرآة الحقيقية التى تعكس التغيرات فى المجتمع سواء سلبا أو ايجابا .

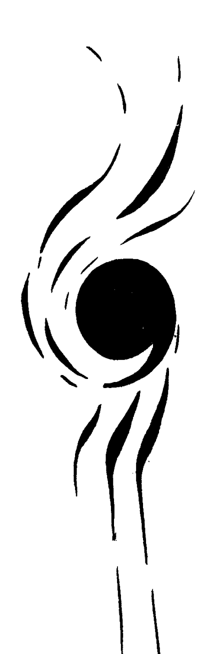
فالرجل يضار مع انتشار النعرات الدينية ولكن ليس بالقدر نفسه . فلم نسمع دعوات تطالب الرجل بأن يسجن نفسه داخل البيت .

ولما كان التعصب الدينى يشكل دائما خطرا على حقوق الانسان الاساسية ودعوة صريحة للتفرقة بين الناس ، فاننا نتصدى اليوم لهذا التيار اللاعقلى واللادينى ، مدركين أن هناك مصالح تتحرك من خلفه ومدركين خطورة السكوت عليه .

ونحن اذ نساند عميد كلية الطب فى موقفه ، انما نساند الشخص والاتجاه .

نساند د . هاشم فؤاد الشخص الذى يقف بشـجاعة وحده أمام شراسـة جماعات منظمـة تستغل معاناة المجتمع باسم الدين ويعلن استعداده لتحمل كل النتائج .

ونساند فى الوقت ذاته الاتجـاه . ذلك الاتجـاه الذى يعيد الى الاذهان نموذج الانسان الذى يستحق انسـانيته قدر وقوفه الى جانب الحـق والعدالة والحرية ، دون الخوف من أى شىء ، حتى لو كان الاتهام بالكفر .



عن مي زيادة (١١ فبراير ١٨٨٦ ــ ١٩ اكتوبر ١٩٤١)

تتعدد الاسباب ، تعدد مواهب مـى ، تعدد جـرعات المرارة فى سنواتها الاخيرة •

نحـن نعيش فى عـالم مصـاب بمـا يمكن تسـميته « بفقـدان الذاكـرة الجمـاعى » ، حـين يكون الامـر متعلقا بانجازات فئتين من البشر •• النسـاء ، والواقعـين خارج السلطة الرسمية •

فالرجل اذا أبدع خارج نفـوذ أو فلسـفة السـلطة الرسمية ، فلديه فرصـة الاعتراف به والتقدير لابداعه ، نظرا لكونه رجـلا فى عالم يتوقع الابداع الفكرى والفنى من الرجال • واذا أبدع منتميا لنفـوذ وفلسفة السـلطة الرسمية ، فالفرصـة أكبر وأسـهل وأسرع • والمرأة اذا أبدعت فى داخل اطـار نفوذ أو فلسفة السلطة الرسمية ، فان التقدير لابداعها يأتى فى المرتبة الاولى ، بحكم انتمائها لتلك السلطة ، أكثر من التقـدير لقيمـة الابـداع النابع من امرأة •

أين اذن تذهب « مـى زيادة » فى عالمنا اليوم ؟ !

وقـــد كانت امـــرأة ، ولا منتمية لنفـــوذ أو فلســـفة أى سلطة رسمية ، اللهم الانفـــوذ وفلسفة موهبتها الفنية وانسانيتها المرهفة ؟

بهذا المزيج ، ساهمت مـــى — دون أن تدرى فى أن تكون مادة خصـبة ل « فقدان الذاكرة الجماعى » .

أكتـــب عن « مـــى زيـــادة » ، علنـــا نســـتعيد جزءا ســـاقطا من ذاكرتنا ، والذى يؤرخ لحيـــاة وفـــن أشـــهر نابغة مبدعة ، عرفها مجتمعنا العربى المعاصر . وما أحوجنا الآن الى تلك الذاكرة . على الاقـــل تحقيقا لمبـــدأ العـــدل التاريخى .

و « مـــى زيادة » كسرت كل المألوف بالنسبة للانســـان عامة والانسان الفنـــان بصفة خاصة .

لقد تعودنا على أن الفن والثقافة والاستقرار على هدف يعطى للحيـــاة معناها ، أمـــور تأخذ الوقت الطويل لكى تميز صاحبها وتصل به الى النجاح والمجد والشهرة .

لم نتعود على نموذج الانسان الذى يجمع بين قمـــة الابداع وقمة الثقافة وقمة الشهرة وقمة النجاح فى الوقت

الذى يتمتع فيه بقمة الشباب • تعودنا على أن قمة المجـد هى الوجه الآخـر للتجاعيد والشيخوخة واقتراب العمـر من النهاية • وجـاءت « مـى » لتحطم — فى سلاسة — ما تعودنا عليه • فقد نالت شهرتها وهى فى قمة الشـباب • وتنوعت أبـواب الشـهرة • فكانت « مـى » الشـاعرة والادبية • وكانت كاتبة المقـال والسيرة الذاتية • وكانت « مـى » صاحبة الترجمات والدراسات النقدية والادبية • وعرفنا « مـى » الخطيبة البـارعة والمحاضرة الفـذة • وعرفناها المصلحة الاجتماعية ذات المواقف الوطنية •

لم تحقق « مـى » ما حققته الا بالجهـد المستمر من أجـل الاستزادة من كل جـديد فى العلم والثقافة • ومن أجل ترسيخ موهبتها فى الوقت ذاته •

أكتب عن « مـى زيادة » ، كى نحقق التصالح بين أشياء تعـودنا أنها متضادة •

وتقـدم « مـى » نموذجا راقيـا للمـرأة بصفـة خاصـة • لقـد عاشـت شـبابها وحيـاتها من أجـل تنمية عقلها وعقل مجتمعها وليس من أجـل تنمية جسدها بالاكل والشرب ومستحضرات التجميـل والتكاثر • عاشـت حياتها لتكون بصمة فى حياة شعب وليس بصمة فى حيـاة رجـل •

ماتت تاركة وراءها ذكرى فن وذكرى نضال • لم تترك ذكرى « حدوته » غــرام وذكرى وجبة طعــام أتقنتها • وهبت « مــى » جمالها وعنفوان شبابها ، لوطن أرادتــه جميلا وشابا • قالت « مــى » فى احــدى خطبها « أريد أن أحيا رغم الجراح والآلام لاكــون فى حياة وطنى الناهض حيــاة » •

أكتــب عن « مــى زيــادة » ، لاضــع بين أيــدى الفتيات والنساءفى مجتمعنا ، نموذجا مختلفا للاهداف التى يمكن أن تهب المرأة حياتها لها •

لقــد تعــودنا على نمــوذج مشــوه لشخصية المرأة الحــرة • وخاصـــة اذا كانت تعمــل فى المجـــال الفنى وشــابة وجميلة • تعــودنا على أن الحــرية للمرأة الشابة الجميلة الفنانة ، ترتبط — فى أغلب الاحيــان — بنوع من السلوك المدلل • تعودنا على النظر الى الفن باعتبــاره مبررا للتصرف غير المقيد بأى نظام ، ومصاحبا للفوضى • وهــو نوع من الجنون يصيب بعض البشر ، والمجنون لا يحاسب على أفعاله كانت « مــى » فنانة •• شابة •• وجميلة وكانت تستضيف فى بيتها كل ثلاثاء ، أشهر كتاب وفنانى عصرها من الرجال • لكنها كانت قمة فى احترام نفسها •• حريصــة على ألا يصدر منها سلوك ينــال من كرامتها وعظمة فنها ،

أكتب عن « مـى زيـادة » ، لنعقـد قـران جـديد بـين الفـن والشـباب والجمـال والسـمو الاخـلاقى للمـرأة .

عاشـت « مـى » وماتـت دون أن تتزوج . الحقيقة التى تؤكـد أنهـا بالفعـل كانـت ظاهـرة غريبـة فى المجتمع العربى المعـاصر . نحـن لا نتصـور أو لا نفهم بقـاء امرأة حتى نهاية العمر دون زواج . اذا حـدث هذا ، فهناك خلل ما أو عيب ما فى المـرأة ، حال دون « المسـار الطبيعى » لحياة النسـاء . وتغـلق أمامنـا « مـى » أى باب للاتهام . فقـد جمعت بين الفن والشباب والجمال والشهرة . وكانت محل اعجـاب الكثير من ضيوف نـدوة الثـلاثاء . وطلبها للزواج شخصيات لها مكانتهـا الفنيـة المرموقة . لكنها لم تتزوج أحـدا ممن تقدموا اليهـا . ظلت حتى وفاتهـا دون زواج مكتفية بنـوع غريب من الحـب . « حب على الورق » بينها وبين « جبران خليل جبران » ، الرجـل الوحيد الذى حقق المعادلة الصعبة .. اسـتطاع « جبران » أن يحرك مشاعرها كامرأة ، بالروعـة نفسـها والعمق نفسه ، الذى حـرك بهما عقلها المبـدع . وكانت الرسائل المتبـادلة بين « مـى » و « جبران » منذ عـام ١٩١٢ حتى عام ١٩٣١ (عـام وفاة جبران) هى وسـيلة الالتقاء الوحيدة .

والمطلع على تلك الرسائل ، يلمس مدى التوافق الفكرى والوجدانى نادر الحدوث • فيدرك السر وراء هذا الحب المسافر دوما • فالقدر لا يحتمل قدرا أكبر من الالتقاء بينهما • لا أحد يعرف ما الذى كان يمكن أن يحدث فى العالم ، اذا التقى هذان الحبيبان المتوهجان حبا وابداعا • اكتفت « مى » بسطور غائب ، عن الحضور المجسد لاى رجل آخر • فضلت الوحدة مع الابداع وخطاب حبيب ، عن صحبة تنال من صدقها وسعادتها وابداعها •

أكتب عن « مى زيادة » ، لنتعرف على دوافع ومعانى جديدة للحب والزواج ، تطهرهما من الانتهاكات الكثيرة التى أصابتهما •

وفى السنوات الاخيرة فى حياة « مى » • قدر لها أن تشهد موت كل أحبائها فى فترة لا تزيد عن الثلاث سنوات • رحل أبوها « الياس زيادة » فى ٢٤ أكتوبر عام ١٩٢٩ ، رحل « جبران » فى ١٠ أبريل عام ١٩٣١ •

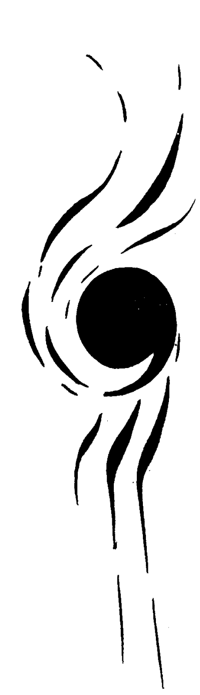
ثم رحيل أمها « نزهة معمر » فى ٢١ فبراير عام ١٩٣٢ •

لم تحتمل « مى » هذا الفقدان المتتالى لاحبائها •. فحاصرها حزن عميق وشعرت بمدى قسوة الحياة ووحشتها • وفى ظل هذه الظروف ، لم تجد من يخفف عنها • ومما زاد من حصار الحزان لها ، أنها كانت

شخصية غير اجتماعية ، تفضــل العزلة عن مخالطة الناس •
قاومت « مــى » الحــزن لكنه تغلب عليها ونال من صحتها
وأعصابها وتفاؤلها •

فوجئت « مــى » وهى فى حالتهــا هــذه ، بأن بعض
أفراد عائلتها استغلوا تدهــور صحتها واضطرابها النفسى ،
لاشاعة أنها مختلة العقل لكى يفسح لهم الطريق لمشــاركة
أكبر فى الارث • زادها هذا الموقف احساسا بفظاعة الحيــاة
وخشــونة البشر • صحيح أن البعض قد وقف مع « مــى »
فى قضيتها باعتبارها طعنة موجهة الى كل فنــان • وصحيح
أنهــا أبطلت مفعول الاشاعة ، حينما ألقت محاضرة عــام
١٩٣٨ بعنوان « رســالة الاديب الى المجتمع العــربى »
لا يلقيها الا ذو العقل الســديد والرؤية النافذة • لكنهــا
فى داخل أعماقها ، كانت قد وصلت الى قمــة النفــور من
الناس والحياة • فرحلت عنهما فى ١٩ اكتوبر عام ١٩٤١ •

أكتــب عن « مــى زيــادة » ، ليعــرف كل فنان أن
قدر عمق حساسيته وأصالة فنــه واختلافه ، قدر ما يحزن
وييأس وقدر ما يحاربه العالم •• وقدر ما يظل وحيدا •



« الســت الواعيــة »

فى أواخــر القــرن العشرين



الحياة « الجميلة » ، هى رجل وامرأة معا •

الحياة « الطبيعية » ، هى رجل ومرأة معا •

ومن القبح واللا طبيعى ، وجود رجل دون امرأة أو امرأة دون رجل •

ولكن « الجمال » و « الطبيعية » ، يشترطان قيمة خالدة ، دعت اليها كل الاديان ، وانشغل بها أصحاب الفلسفات الانسانية ودعاة التغيير الاجتماعى ، ألا وهى « العدل » •

فالجمال دون عدل ، يصبح قبحا •

والطبيعى دون عدل ، يصبح شذوذا •• يصبح ضد الطبيعة •

ومهما اختلفت الناس حول السبل التى يفضلون اتباعها لتحقيق العدل ، فانهم يتفقون على معنى له ، شامل وانسانى ، ألا وهو عدم قيام انسان ما (أو مجموعة ما من البشر) بفرض وظائف فى الحياة أو اهتمامات أو أفكار أو عقائد أو أنماط للسلوك ، على انسان أخر (أو على

مجموعة أخرى من البشر) ، استنادا الى أشياء حدثت مصادفة وهى اللون ، الجنس ، الطبقة ، الديانة والعنصر ، وذلك بهدف اما تدعيم نظام اجتماعي بكل أجهزته ومؤسساته • أو الحصول على مكاسب مادية مباشرة •

وقد تخصصت الاعلانات التى تواجهنا كل يوم فى الهدف الثانى ، حيث تدهشنا بادخال أنواع جديدة من القبح والشذوذ مستندة الى التفرقة بين الرجل والمرأة •

* فلسفة الاعلانات

تتجاهل الاعلانات بشكل فج ، كل انجازات المرأة ، منذ تبلور الحركة الوطنية الشعبية النسائية والتى أشعلتها ثورة ١٩١٩ ، وحتى يومنا هذا •

تدوس — بكل تحد — على التطور الذى حدث فى شخصية المرأة ، فى نظرتها الى نفسها ونظرتها الى مجتمعها • كذلك تدوس على التطور الذى حدث للرجل فى تغير نظرته الى المرأة •

نحن لا ننكر أن المشوار ، مازال طويلا لكل من الرجل والمرأة ، حتى يصلا الى حياة « جميلة » و « طبيعية » قوامها « العدل » فى كافة مجالات الحياة •

ولا ننكر وجود وتأثير القوى التى تريد عرقلة هذا

المشوار بل واجهاضه . لكننا لا نخشى هذه القوى ، لانهـا دائما هناك وسوف تبقى . فمن طبيعة الامـور فى كل زمان ومكان ، تواجـد تيار التقدم والعدل والجمال ، جنبا الى جنب ، مع تيار التأخـر والظلم والقبح . السؤال هو ماذا نفعل وكيف نفعله ، لترجيح كفة الجمـال على كفة القبح . وترجيح كفة التقـدم والعدل على كفة التأخر والظلم .

ومع الاسف فان الاعلانات التى نراها ونسمعها ، من الأدوات الخطيرة التى تسهم فى ترجيح كفة التأخر على كفة التقـــدم .

*** كيف يحـدث هذا ؟**

أولا : فى كل الاعلانات التى تروج للسلع والخـدمات المنزلية ، نجـد أن المرأة هى التى يقع عليها وحدها عـبء الغسيل والتنظيف والتلميع والطبيخ . وتظهر هـذه المـرأة وهى ترتدى أحدث مودة فى الاثارة والاناقة والاغـراء ، وعلى شفتيها ابتســامة بلهاء تنتظر الزوج والاولاد .

نحن نشك فى أن المرأة التى يحتـل البيت كل أفـاق انشغالها لديها من الوقت الكافى للاناقة والشياكة . كما أننا نتســاءل لم الحاجة أصلا الى كمية « الدلال » و « هـز الجسم » التى تظهر بها تلك المرأة ؟ من المقصـود بالاغراء وهى امرأة متزوجة ؟

والاهم من هذا كله ، اننا ندعو الى مشـــاركة المـــرأة فى كل أعباء الحياة طالما نهدف الى صالح وراحة الاسرة لماذا لا نرى ولو اعلانا واحـــدا يقوم فيـــه الرجـــل أو الزوج بالترويج لسلعة أو خـــدمة منزلية ؟ هل هـــذا ضـــد كرامة الرجل ؟ ضد الرجـــولة ؟ ضد الدين ؟ ضد الدستور ؟ ضـــد السياسة الخارجية ؟ ضد ماذا بالتحـــديد ؟

واذا كان قيام الرجل بالاعباء المنزلية يعتبر اهانة لكرامة الجنس الذكورى • فلماذا يتهافت عدد لا بأس به من الشباب الرجال على أعمال منزلية مثل غسيل الصحون واعداد الاكلات فى الفنادق والمحلات سواء داخل المجتمع أو خارجه ؟ واذا كان ضد المجتمع بقيمه وأفكاره • فلماذا نترك عددا كبـــيرا من الرجال السعاة فى المصالح الحكومية العامة والخاصـــة ، يعدون الشـــاى والقهوة (جزء من الخدمات فى المنزل) ؟ هل كرامة الرجل داخل المنزل ، غير كرامته خارجه ؟ هـــل اعداد رجل لقهوة فى مكان عمل لرئيسه ، تدعيم لكرامته ؟ واذا أعدها لزوجته فى المنزل يعد مساسا بكرامته ؟ !

ان هذا النمط الاعلانى ، يضرب بعرض الحائط ، معنى الكرامة الحقيقية ومعنى الرجـــولة الجوهرى • وهناك عدد من الاسر المصرية لا يمكن تجاهله ، يمـــارس فيهـــا الاب

أو الزوج كرامتـه ورجولته بشـكل لا يتعارض والقيـام بأعبـاء المنزل •

من أجمل الاشياء التى يتميز بها مسلسل « بابا عبده » الذى عرضه التليفزيون ، هو بالتحديد ، هذا النوع الجـديد من ممارسة قيمة الرجـولة والابوة • فالاب فى كل موقف وفى كل مكان ، يفتخر بأنه على مدار عشرين عاما ، قـام وحـده بكل أعباء المنزل ، على أكمل وجـه • وهو يتحـدى أية ربة بيت ان تتفوق عليه • بل انه فى أحـد المشاهد ، قال حينمـا أعـدت المـائدة دونـه : « هـذا تعـد على أختصاصاتى » • نحـن لم نشعر أن هذا الاب ينقص من كرامته ورجولته وأبوته ، لانه يعد الطعام لاولاده ومسئول عن البيت من الالف حتى الياء •

ان العمـل وتحمـل المسـئولية فى أى مـكان وعلى أى مستوى ، أمـر جميل ومشرف ، بشرط توافـر النظرة الانسانية العادلة •

وهناك بعض الرجال — بالطبع يشـكلون الاستثناء — يرون أن اقتصار دور الرجل أو الزوج على توفير النقـود ، وانتظاره وهو يضـع ساقا فوق أخـرى للغـداء وترتيب ملابسه وعدم فهمه لأى من أمور البيت الداخلية ، هو نقصان

للرجولة وللكرامة الانسانية . فالعدل هو الذى يعطى حـق الكرامـة .

واذا كانت مثل هذه الرؤية استثناء ، فلماذا لا تـكون الاعلانات المبادرة فى تدعيم ما هـو استثنائى ، لخلق مزيد من الاسر التى يشترك فيها الزوجان فى عمل المنزل ورعـاية الاولاد ، دون أن يشعر أحدهما أن انسانيته قد خدشت ؟

لكننا نعود ونستبعد جدا مثل هذه المبـادرة ، فكيف تحدث وهناك اعـلان يروج لشركة قامت بتصنيع قاعدات « تواليت » لها أسماء نسـاء مثل « ثريا » و (دينـا) ؟ أليس هذا اهانة لكرامة وانسانية المرأة حينما تتحـول الى قاعدة « تواليت » ؟

ترى ماذا سيكون شعور الرجل اذا سـميت قاعدات « تواليت » بأسماء رجال مثل على ، سعيد وغيرهما ؟

نحن نتساءل ، اذا كان الغرض من هذا التصنيع الفريد ، هو اعطـاء قيمة انسـانية تبعـد عن التشـيؤ ، لقاعدات « التواليت » ، فلماذا استبعدت أسماء الرجال ؟

أليست مشاركة الرجل والمرأة معا فى أعباء المنزل بـكل تفاصيلها ، أفضل من التحول الى قاعدة « تواليت » ؟ !

ثانيا : ابتكرت الاعلانات نمطا حديثا للكسب المادى وترويج السلع . فاصبحنا نواجه الآن باعلانات لها فلسفة مميزة تقدم لنا نموذجا للمرأة الجديدة فى أواخر القرن العشرين .

وفى هذا الصدد ، سوف نشير الى أربع صور على وجه التحديد .

الصورة الاولى : تظهر امرأة فى غاية الاناقة والاثارة وفى غاية الحيرة والانزعاج ، تعكسهما عينان مرسومتان بدقة . ويأتينا انطباع أن نهاية العالم قد وقعت ، أو أوشكت على الوقوع . ثم نعرف أن نهاية العالم المقصودة ما هى الا عدم استقرار المرأة الانيقة على أنواع الطعام الذى تعده للضيوف . وفى غمضة عين، تزول الحيرة بظهور « مرقة دجاج » .

الصورة الثانية : تظهر امرأة فى منتهى الهم والنكد ، لكنها أيضا فى منتهى الاناقة . وتستعرض لنا — فى محاولة لتأبيد دافع الهم والنكد — حكاية الغسيل الذى يفتقد الى اللون الابيض . ليس فقط هذا ، ولكن غسالتها أيضا تتأثر . وفورا يتلاشى الهم والنكد ، حينما تأخذ بيدها امرأة أخرى تتطوع لمساعدتها وتدلها على مسحوق للغسيل ،

يغسل أكثر بياضا ويحافظ على الغسالة وأيضا على البشرة . ونستنتج بالتالى أنه يحافظ على كيان الاسرة كلهـا . ويأخذ هذا المسحوق شعارا له « الست الواعية تختاره » .

ويبدو ان الاعلانات اكتشفت طبقة جديدة من الوعى ، لم يكتشفها « فرويد » وعلماء النفس ، ولم تتنبه لها حركات تحـرير المرأة .

نحن نتساءل عن نوعية العلاقة التى تقوم بين المـرأة والرجل ، حينما ينشغل وعى المرأة باختيار أفضـل مسحوق غسيل وأفضل مرقة دجـاج ، فى حين ينشغل وعى الرجـل بالامان النووى وتوازنات القوى بعد الانتخـابات وقضايا الفلسفة والابداع ؟!

الصورة الثالثة : يعلن عن خضروات معبأة ومجففة فى اعلان يتخذ شعارا له « ما تهنى جوزك » فى صوت ناعم ، خليع ، يفتعل الدلال والاثارة .

نتساءل هنا ، هل حق استخدام الخضروات المعبـأة والمجففة التى توفر الجهد والوقت ، مقصور فقط على المرأة المتزوجة ؟ لمـاذا لا يقولون — بجانب الشعار المستخدم — « ما تهنى نفسـك » أو « ما تهنى أمـك » أو « ما تهنى أختـك » ؟ ! أو ما تهنى أبـاك » ؟

هل الحياة نساء متزوجات فقط ؟ !

وهل « الهناء الزوجى » مرادف لحشو معدة الزوج ؟

ثم لماذا تلك الاصوات التى تفتعل الدلال والاغراء ؟

الصورة الرابعة : يتم الاعلان عن ملابس للمحجبات بشكل متناقض . فتظهر امرأة محجبة ، تسحق اناقتها وشياكتها كل النساء غير المحجبات من مختلف الطبقات . يقول الاعلان : « نحن نقدم الحجاب فى شكل يجمع بين الاناقة والجمال والمودة والاحتشام » .

ولا يملك الانسان — اذا كان يتمتع بحد أدنى من العقل — الا أن يتساءل أليس الحجاب رمزا للزهد فى أمور الدنيا الفانية والتى تثير الفتنة والاغراء وتلفت الانظار ، وهى الاناقة والجمال والمودة . أليس تصميم الحجاب بهذا الشكل ، يفقده معناه الاساسى ، وبالتالى يساوى بين المرأة المحجبة والمرأة غير المحجبة ؟

وهناك اعلان أكثر خطورة يخاطب المرأة المحجبة (بعد بدايته بآية قرانية) بقوله : « أختى المحجبة » معنا تصبحين ملكة متوجة على عرش الاناقة الاسلامية ....

ستجدين وصيفاتك فى انتظارك لتنصيبك تاج الحشمة ووقار التجمل ، بقصر المحجبات » ..

ومع الاعلان ، ما يشبه « كوبون » للحصول على خصم ١٠ ٪ ، والمحل يسمى « الكوبون » المرسوم الملكى . (اعلان صادر فى صحيفة يومية يوم ١٩٨٧/٣/٩) .

نتساءل . هل هناك مصطلح اسمه « الاناقة الاسلامية » ؟ وبالتالى تكون هناك « اناقة مسيحية » و « اناقة يهودية » ؟

أليس فى هذا الابتكار الفريد من نوعه ، نوعا مستترا وحديثا لاشعال « الفتنة الطائفية » ولكن باستخدام الزى ؟ !

ثم ما هذه النظرة الطبقية الفجة فى تقسيم النساء . جزء منهن « ملكات » و (هن المشتريات المحجبات) ، وجزء « وصيفات » (البائعات) ، هل فى الاسلام (بمعناه الجوهرى الانسانى) مثل هذه التقسيمات الطبقية بين البشر ؟ ! بل هل فى أى دين من الاديان الانسانية ، مثل هذه الطبقية ؟

مع هذه الانماط الاعلانية ، لا يملك المرء الا الدهشة

الشـديدة ممتزجة بالاسف ، من هـذا التسطيح والابتذال للقيم الانسانية والقيم الدينية الحقيقية ، بهدف الكسب التجارى وترويج السلع •

هذا التسطيح والابتذال ، ليس فقط ضد جوهر الدين ، ولكنه يقف حائلا ضد أى نوع من الفهم وضد تحقيق الاتساق فى شخصية الانسان ، سواء كان صاحب العرض أو صاحب الطلب •

*** البـديل :**

هناك الكثير من التساؤلات تثـيرها أشـكال ومضامين الاعلانات التى تواجهنا كل يوم •

ولا ينبغى علينا الاستهانة بما تقدمه لنا من أفكار ضمن ترويجها للسلع حيث انها تتجاوز مهمة الدعـاية التجـارية أو مهمة الترفيه •

وأصبحت أداة مباشرة وخطـيرة فى تدعيم القيم التى تقاومها الاقلية المستنيرة من النساء والرجال على حد سواء ، وهى أداة نجاحها مضمون ، لانهـا غـير مملة وتسـتعين بالموسيقى والزخارف المختلفة ، مما يسهل تأثيرها ليسـت فقط على جيوب الناس بل على عقولهم أيضا • وهذا هـو الخطر الاكبر •

ان اعلانا واحدا مدته دقيقة أو أقل ، لكفيل بتضييع مفعول كل ما تفعله النســاء من انجازات — لا يدرى بهــا أحــد — لخلق قيم جديدة بين المرأة والرجل ، وبين المرأة ومجتمعهــا .

نحن نتساءل — بشــكل عام — هل هناك تعارض بين الترويج لسلعة أو خدمة منزلية والاستعانة بعنصر الرجل ؟ طالما هو مستفيد أيضا !

هل يقل اقبال الناس على شراء مسحوق غسيل أو مرقة دجاج اذا ظهر كل من الرجــل والمرأة معا فى الاعلان ؟

وهل يتعارض الترويج للسلع والخدمات مع صــوت جاد غير خليع ، لا يفتعل الدلال والاثارة والاغراء ؟

هل هذا ضد السلعة نفسها ؟ أم ضــد الرجل ؟

واذا حدثت بعض المشاكل ، أليست ثمنا رخيصا مقابل خلق قيم جديدة أكثر انسانية وأكثر عدلا وأكثر جمــالا ، بين الرجل والمرأة ، بين الزوج والزوجة ؟ !

نحن لا نشك مطلقا فى أن اعلانا واحــدا لا تتعــدى مــدته دقيقة واحدة يشترك فيه الرجل والمرأة فى « هموم » البحث عن مسحوق غسيل أو الحفاظ على الغسالة واختيــار

أفضل « مرقة دجـاج » ، قادر على اختصار مشـوار طويل على المجتمع السير فيه ، لتحقيق علاقة جميلة وطبيعية قائمة على العدل بين الجنسين •

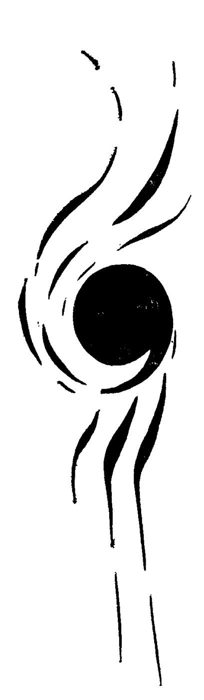
نحن فى احتياج شـديد الى نوع جـديد من الدعاية والترويج للسلع ، لها وعى انسانى وفلسفة انسانية وشجاعة المشاركة فى شرف التغيير • وليس نوعـا يسهم فى مزيد من التناقضات الاجتماعية عن جهل أو عن عمـد •

نحتاج الى نوع من الدعاية ، لا « يركب الموجـة » المتنامية الآن من انتشار المفاهيم الشكلية السطحية للدين •

نوع من الدعاية ، يضـع انسـانية المرأة والرجـل والاسرة ، فوق التجارة واستسهال الامور •

نحتاج بشدة الى دعاية جـديدة للسلع ، لا تحـول المرأة الى سلعة ولا تحول الدين الى سلعة •

* * *



نساء العالم يحاربن البغاء

وسط اجـــراءات أمن مشـــددة ، استقبل مركز فيينـــا للمؤتمرات الدولية ، مندوبين من القارات الخمس • بعضهم حضر بصفته الرسمية ، والبعض الآخر بصفته الشخصية •

لم يحضر الاعضاء لمناقشة أخطار الاسلحة النـــووية أو أزمة العلاقات الدولية لكن كان الهدف « القضـــاء على البغاء » من خلال المؤتمر الثامن والعشرون للاتحـــاد العالمى للقضـــاء على البغاء ، والذى نظم بالتعاون مع مركز الامـــم المتحـــدة للتنمية الاجتماعية والانسانية •

ومن المعروف أن هذا الاتحاد قد انشىء بهدف القضاء على البغاء فى أشـــكاله المختلفة ، المنظمة أو غـــير المنظمة ومقاومة استغلال جسد الاطفال تجـــاريا وسياحيا •• وهى ظواهر يعتبرها دستور الاتحاد جرائم تتعارض مع العدالة الاجتماعية ويعدها انتهاكا مباشرا لحقوق الانسان • ولقـــد

أعلن الاتحاد فى الجزء الاول من دستوره انه لا ينتمى الى أية أحـزاب سياسية أو أية تيارات دينية أو فلسفية ، بـل يسعى الى هدفه من خـلال منظـور انسانى عـام • ومن هذا المنظـور يقبل عضوية المنظمات والافراد •

وفى مركز فيينا الدولى بدأ المؤتمـر جلساته • وقـد تنوعـت مجـالات التخصص والمعـرفة فشـملت العمـل الاجتمـاعى ، والبحث العلمى بفروعه المختلفـة ، الطـب النفسى ، المحـاماة ، البوليس الدولى ، والصحافة •

ناقش المؤتمـر ثلاثـة محـاور رئيسـية : المجتمع أى انعكاس البغاء على قضـايا اجتمـاعية مثل الاسرة ، الاخلاق ، العلاقة بين الجنسين •• والمستغل والمستفيد ، وسوق البغاء بطرفيه : العرض والطلب •

ناقش أحد أعضاء المؤتمر وهو يعمل فى البوليس الدولى فى سرى لانكا ، الارتباط الذى تؤكـده خبرته بين انتشـار الخمـور والمخدرات وتزايد حوادث العنف ، والبغـاء • وهو ارتباط أدى الى خلق نوع جـديد من النسـاء اللائى يمارسن البغـاء أساسا ليتمكن من شراء المخدرات • وذكر أن هناك طريقة يتم بها توريد العاهرات من مناطق مثـل

أمريكا اللاتينية وشرق آســيا الى أوروبا • ويتم التوريد على أنهــن خادمات أو راقصــات ثم يتحولن الى البغــاء كمهنة ثابتــة •

وبالنســبة لدول مثل اليــابان — الفلبين — تايلاند — سنغافورة — هونج وكوريا الجنــوبية ، فقــد لوحظ بعض التشابه فى الصورة التى عرضوها • وان جاءت نقاط التركيز مختلفة بطبيعة الحــال •

تم التركيز مثلا على البغاء المرتبط بالقواعد العسكرية الامريكية فى هذه المنطقة • تحدثت عضوة المؤتمر من اليابان عن قاعدة « أوكوناوا » والتى وصفتها على انهــا ســوق للبغاء تتخلله قاعدة عسكرية ، أكثر منها قاعدة عسكرية يتخللها ســوق للبغــاء • وأوضحت أن هــذا المزيج من النســاء اليابانيات والجنود الامريكان ، يخلق نوعا جــديدا وخطيرا من البغــاء يكتسب بعد الاغتراب •

ومن الفلبين ، شاركت خبيرة تنتمى الى منظمة حــركة العالم الثالث ضد استغلال النساء • وقــد تحدثت بحماس شــديد ووعى أشــد عن ظاهرة توريد النســاء الفلبينيات الى أوربا واليابان • وأكدت أن تدهــور الوضع الاقتصادى من العوامل الاساسية المسئولة عن البغاء ، خاصــة بعــد

تزايد الطلب العالمى عليه • وتساءلت عن الابعـاد الكامنة وراء هذه الظاهرة : « هل الامر مجـرد وفاء بالاحتياجات الجنسية لبعض رجال العالم المتقـدم ؟ أم هنـاك دوافـع عنصرية ورغبة هؤلاء الرجال فى الشعور بالتفوق حين يشترون جسـد امرأة من العالم الثالث ؟ »

ومن تايلاند تحدثت عضوة المؤتمر عن ظاهرة الجنس المنظم فى بلدها وأوضحت كيف أصبح الجنس وكيلا أو مرشدا للسياحة • وبهذا الشكل أصبح جسد المرأة ميكانيزما جديدا يستخدمه النظام الرأسمالى العالمى ليس فقط لمزيد من الربح ولكن أيضـا لامتصاص أزماته الدورية كالبطالة والعنـف وانتشـار المخـدرات ولهـذا أكـدت فى خاتمـة حديثهـا ان دراسة البغاء فى مرحلته الحديثة المتميزة بالتجارة والتدويل لا يمكن عزلها عن دراسة أزمة الرأسمالية الحديثة •

وعن بغاء الاطفال ، تحدث عدد من العضوات • من هولندا مثلا تحدثت احـدى النساء المنتميات الى منظمـات حماية حقـوق الاقلية والمضطهدين والضعفاء • وأكدت من خلال خبرتها والمعلومات التى تأتى اليهم من تجارب فى بلاد أخرى مثل فرنسا ، وألمانيا الغربية ومنظمة شرق آسـيا ، أن بغـاء الاطفال خطر يتزايد يوما بعد يوم • وهو يبـدأ

فى ســن مبكرة من ست ســنوات تقريبــا • والاطفــال المستخدمون مشردون غالبــا أو يفتقرون الحب والانتمــاء داخل الاسرة أو الفقراء • وهم يجبرون على البغاء كوسيلة للعيش وتطلعا الى الايواء فى مكان أفضل •

ولكنها أوضحت انه مهما كان المقابل المــادى فانــه لا يمكن مقارنته بذلك الافساد الاخلاقى والانسانى اللذين يتعرض لهمــا الطفــل • بالاضــافة الى أنه فى حــالات الحوادث ، لا توجد أية ضمانات لهؤلاء الاطفال ولا أحــد يعرف عنهم شيئا • وغالبا يطردون من المهنــة دون مبرر أو بديل • واختتمت مندوبة هولندا حديثها بالتأكيــد على أن التجــارة فى الاطفــال ســياحيا فى الفــن المعــروف « بالبورنوجرافى » ما هو الا فتح أسواق جديدة فى المستقبل وتدعيم البغاء الموجود حاليا •

ومن هولندا ــ ألمانيا الغربية ــ بيرو ، كان هنــاك مندوبون من تلك المنظمات التى انشئت للدفاع عن حقــوق النساء المشتغلات بالبغاء •

وقد أثار وجــود هؤلاء المندوبين تساؤلا هاما هــو : ألا تســاعد هذه المنظمات على تدعيم مهنة البغــاء وان كان لهــا دور انسانى فى حماية المشتغلات بها ؟ وجاء الدفاع :

اننا اذا كنـا نعيش فى عالم يفرز هذه المهنة انعكاسا لنظامه الاجتماعى والاقتصادى ، واذا كان تغيير هذا النظام يقتضى نوعا من الثورة ليست ممكنة دائما — أو حاليا على أبسـط تقـدير — فعلى الاقل علينا تقديم المساعدة لضحايا هـذا النظـام بدلا من الوقوف موقف المتفرج •

من الذى يخلق الطلب على هذه المهنة ؟ من هو العميل ؟

لتقديم جزء من الاجـابة ، تقدمت احدى الباحثات من الدانمارك بنتائج دراسة أجرتها على مجتمعها خاصة بهـذا الشـأن • وجـاءت النتائج أن ٨٠٪ من العمـلاء رجـال متزوجون ، والـ ٢٠ ٪ غـير متزوجـين • كانت مبررات الرجل المتزوج : التغيير • بينمـا كانت تفضـيل العـلاقة الجنسية غير المقيدة بأية مسئوليات عاطفية فى حالة الرجـل غير المتزوج •

ومن الابحاث التى لفتت نظرى البحث المقدم من فرنسى متخصص فى علم النفس الاجتماعى • لم يكن البحث مجـرد دراسة علمية جافة عن البغـاء فى فرنسـا • بل كان أكثر تناولا للنواحى الانسـانية والنفسية وبأسلوب أكثر حيوية وصـدقا •

قال « قبل الحكم على المشتغلات بالبغاء يجب أن نتذكر انهن بشر مثلنا • لهن احتياجات ورغبات وتطلعات فى الحياة »

أنا مثلا قبل الموافقة على حضـور المؤتمر سألت عن بدل السفر والاقامة • كلنا نتحرك بالدوافع الاقتصادية بشـكل أو بآخر ولكننا قد نكون فى ظروف أفضـل ، جعلتنا ننتمى الى فئة الباحثين أو المفكرين » •

وأكد على انه لا يؤيد مهنة البغاء ولكنه أراد توضـيح ان العالم اللا انسانى الذى نستمتع بانجـازاته وامكانياته كفئة متميزة من البشر هو نفسه العالم الذى يحطم بشرا آخرين فى أماكن متفرقة ومن ضمنهم المشتغلات بالبغاء •

واختتم حديثه بأن البغاء ليس له شكل واحد عالمى بل أشكال محلية مختلفة وعلينا ألا نطلق وصف البغاء على النساء فقط بل أيضا وبالقدر نفسـه على الرجال العملاء •

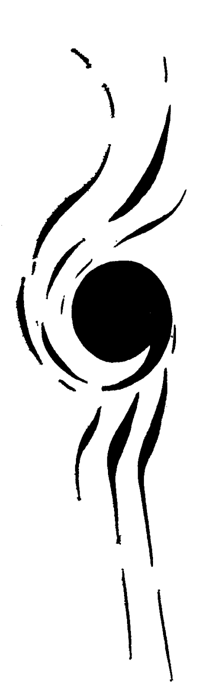
ومن الاشياء التى شدت الانتباه فى المؤتمر ، حضـور احدى النساء من ألمانيـا الغربية كانت تعمـل فى مهنـة البغـاء • وقد تحدثت عن تجربتها الشخصية •

قالت انها عاشت طفولة وحيدة وتعرضت للاغتصـاب من أحد أقاربها الذى تعاون مع أحد القوادين لاستغلالها • وذكرت انها كانت تتعرض للضرب الشـديد بسبب رغبتهـا فى الحصـول على نصـيب أكبر ممـا كانـت تأخـذه • قالت : « كنت أشعر ان هناك خللا ما فى الحيـاة هو الذى

جعلنى هكذا ولكن لصغر سنى لم أكتشفه » وقالت : « أحلم بعالم لا يحتاج الى البغـاء •• ولكن أين العالم الانســانى الذى لا يفرق بين البشر » •

كانت تتكلم ببساطة وصدق • وفى عينيها فرحة وفخر • فكل هذا المؤتمر منعقد من أجل مناقشـــة أمرها • وقد أدى وجـودها الى اضفاء مزيد من الفعالية والواقعية على جو المؤتمر • فليس من المعقول عقد أى مؤتمر لمناقشة مشـاكل أى مجموعة من البشر دون تواجد من يمثل هذه المجموعة •

* * *



لمـــاذا يضربني زوجـــي ؟

مازلت أتذكر حوارا دار بين شاب وفتاة فى فيلم شاهدته منـذ سـنوات .

بدأ الشاب الحوار قائلا : « هل يمكن أن أسألك سؤالا سياسيا ؟ . اندهشت الفتاة وزاد تركيزها » .

قال : « هل تتزوجينى » ؟

ومثلما اندهشت فتاة الفيلم من هذا الارتباط بين عالم السياسة وعالم الزواج ، كانت دهشتى وأنا داخل جامعـة « نيروبى » ، حيث الاحتفال غير الحكومى بانتهـاء العقـد العالمى للمرأة والذى بدأته الامم المتحدة عام ١٩٧٥ .

وسبب الدهشة ، ادراكى أن بعض النسـاء – سـواء عن عمد أو جهل – مازلن يناقشن بشكل لم يحسم بعـد : « هل جئنـا – نحن النساء – من أخر الدنيا ، لنناقش قضايانا الخاصة أم لندخل عالم السياسة ، الـذى وصفته احدى النساء بانه « عالم من صنع الرجل » ؟

ونصحتنا أن نعى الامر والا نقع فى مصيدة السياسة .

وبدون قصد ، أثار هذا التعبير جـوهر قضية المرأة .

فهى تعيش فى عالم تخضع فيه أمــور السياسة والاقتصاد والتشريع والاخلاق وغيرها ، لفئة ضئيلة من الرجــال تملك القرار والثروة • لكننــا نخطىء اذا تصورنا أنه « عــالم الرجل » وانه بعيد عن قضايا المرأة • فهو عالم من الانظمة الاجتماعية يسودها الرجل ، وتؤثر فى تفاصيل الحياة اليومية لغالبية النساء والرجال •

فى هذا الحوار المتسم بالسخونة يرتفع صوت ســيدة أمريكية فى عصبية وغضب : « جئت هنــا لاناقش لمــاذا يضربنى زوجى وليس لمناقشة العنف الذى يمارســه النظام العنصرى فى جنوب أفريقيا » •

أيدتهــا ســيدة أصغر فى العمــر من أمريكا اللاتينية بقولها : « أنا الاخرى جئت لاجــد حلا لكل الاعباء المنزلية المتوقعة منى ، بدءا بالتنظيف حتى الترفيه النفسى والجنسى لزوجى والذى غالبا ما يفرضه على بالقوة • ولــم احضر للاشتراك فى ندوات عن الصراع العربى الاسرائيلى أو حرب العراق وايران أو تدخل الولايات المتحدة فى نيكاراجوا » •

وقد أثارت احدى النساء العربيات الحــوار بقولها : « تتكلمن عن المرأة التى يضربها زوجها داخــل بيتها » • هذا بالطبع كلام واقعى ولكن ماذا عن المرأة الفلسطينية التى

لا بيت ولا أرض لها ؟ يجب أن يكون لها بيت لتكون هنـــاك امكانية الضرب » .

وتحمست امرأة من اريتريا علقت قائلة : « نحن نـــرى الاولوية فى الكفاح المسلح من أجل اقامة اريتريا مستقلة . نحن نعانى من العنف المسلح داخل أرضنا من قبـــل دولة أخـــرى » .

ومع اختلاف الاولويات التى أثارتها النســـاء ، انتهى الحـــوار باقتناع الغالبية بضرورة فهم العلاقة الجدليـــة بين ما يحـــدث فى حياتنا الخاصة وآليات السياسة فى العـــالم فالتحدى المطروح هو كيفية الربط بين العنف والقهر اللذين يمارسان ضد المرأة من جانب الرجل داخـــل البيت أو مكان العمل والعنف والقهر اللذين يمارسان على دول مختلفة من جانب بعض الانظمة الاجتماعية .

نحن فى حاجة الى الاجابة عن السؤال : « لماذا يكون من مصلحة أى نظام اجتماعى ابقاء وتدعيم التفرقة بين البشر سواء كانت قائمة على الجنس — الطبقة — اللون — الديانة أو العنصر ؟

نحن فى حاجة الى التخلص من الوهـــم الـــذى يجعلنا نتصور امكانية وجود بيوت قائمة على العدل والحرية فى عالم غير عـــادل .

واقترحت بعض النساء ، انشاء منظمات نسائية فى تلك الدول التى تسودها ظاهرة العنف داخل المنزل لحماية المـرأة من كل أنواع الانتهاكات غير الانسانية لحقوقها والتى تجـد أساسها فى أن الرجل الزوج يعتبر المرأة ملكية خاصـة له ، بحكم القانون مما يعطى هذه الانتهاكات شرعية .

ويرتبط بهذا الحوار ، واحدة من أهم النـدوات التى نظمتها النسـاء فى « نيروبى » بعنوان : « ما هى الحـركة النسـائية » ؟

وأهمية الموضـوع — فى رأيى — ترجـع الى أمرين : الاول ، ان الكثير من النسـاء والرجـال فى بلاد مختلفة من العالم ، لا يزالون يسيئون فهم ، ويشوهون ، حركات تحرير المرأة . فهنـاك الاعتقـاد أن المسألة ليست الا نوعـا من الرفاهية الفكرية أو نوعا من « المـودة » التى تسـود العالم لفترة من الزمن . أو حقـدا مريضا يهدف الى الانتقـام من الرجل وغلق المرأة فى عالم مبتور منفصـل عن المجتمع .

الامر الثانى : ان نظريات الحركة النسائية أصبحت اليوم علمـا واسعا من اقتصاد وسياسة وأخلاق وتاريخ وقانـون وأديان وفنون يشمل كل فروع العلوم الانسانية وليست مجرد أحاديث عابرة فى الصالونات والمؤتمرات .

من الامور التى اتفق عليها فى هذه الندوة ، أهمية الوعى بأن الحركات النسائية فلسفة شاملة للحياة تهـدف الى اعادة توازن القوة بين النساء والرجال •

وبطبيعة الحال ، كانت هناك الآراء التى عكست الاختلاف بين تجـارب النســاء فى بلاد متعــددة • نجـد — مثلا — امرأة من تنزانيـا توجه لوما للحركة النسائية فى أفريقيـا لانها لم تهتم اهتماما كافيا بالمرأة الريفية ، وأوضحت أنــه لو حدث اهتمام أكبر ، لوجدنا حــلا لازمة الغذاء فى القارة الافريقية • أو على الاقـل لاستطعنا تخفيف عواقبهـا • وهى تؤمن بأن الذى يكسب الحركة النسائية قوة وشرعيــة هو ارتباطها بحرية الانسان فى أى مكان من العالم •

ومن الفلبين ، تضيف احدى النســاء : « من تجربتى ، أرى أن هناك خيطا رفيعا بين مفهوم الحركة النسائية ومفهوم النظام الاموى • ومن الاسف نجد بعضا من النساء اللائى يخلطن بين المفهومين لصالحهن الخاصة والتى تدعمها بعض القوى السياسية الرجعية » •

وعن الارتباط بين المرأة والسياسة داخل الحزب السياسى الواحــد ، نلمس تجربة رائدة من أسبانيا • تقـول المــرأة الاسبانية : « بعد تجربة دامت عشر سنوات داخـل أحــد الاحزاب اليسارية فى بلدى ، اكتشفت ان قيادات الحــزب

تعامل مشاكل النساء معاملة دونية وثانوية . بل أحيانا تميع هذه المشاكل . لهذا تركت الحزب وانشأنا أول حزب سياسى للمرأة فى العالم . حيث استقلال وحرية المرأة يسيران جنبا الى جنب مع استقلال وحرية أسبانيا » .

ونحن بحاجة الى التوقف قليلا عند هذه التجربة الرائدة . والسبب يعود الى أن فكرة انشاء حزب سياسى للنساء تلقى الكثير من المقاومة وعدم الفهم . فهناك المنطق الذى يرى أن الحزب السياسى لا يكون الا للطبقات الاجتماعية كما هو الحال مثلا كأحزاب العمال . وبما ان النساء لا يشكان طبقة اجتماعية بل فئة من المجتمع تتداخل فى كل الطبقات ، فليس هناك — بالتالى — تصور لقيام حزب نسائى سياسى . ان هذا المنطق صحيح ومرتبط موضوعيا بنشأة وتاريخ كل الاحزاب السياسية ، ولكن اذا كان هدف الحزب السياسى — دائما — هو الحصول على قوة سياسية تمكن من احداث التغيير الاجتماعى الذى يخدم أعضاءه ، واذا كانت النساء ، كنصف المجتمع ، يعانين من بعض أنواع الظلم الاجتماعى ، فلماذا لا نتصور فكرة انشاء حزب سياسى للمرأة ؟ والا ، كيف يمكن للنساء احداث التغيير ؟

وأنا — شخصيا — أعتقد ان الامر لا يجد جذوره أساسا فى الدفاع عن تاريخ الاحزاب السياسية ، ولكنه يعكس النظرة

الى المرأة وقضـــاياها • النظـــرة التى تتجـــاهل الارتبـــاط العضوى بين مشاكل النساء والنظام الاجتماعى • واذا كان هناك بعض الارتبـــاط ، فانـــه لا يصـــل الى حـــد ضرورة الحصول على قوة سياسية للتغيير • انهـــا النظرة التى تحرم النساء شرف التغيير الاجتمـــاعى ، بحجـــة تداخلهن فى كل الطبقات ، وكل حقوقهن هى فى انشاء جمعيات خيرية •

اننا ننسى أن نتساءل : كيف يمكن لحـــزب سياسى أن يحرر بلدا ما وهو لا يؤمن بتحرر نصف المجتمع ؟

وهناك ـــ أيضا ـــ الاتهام الذى يوجـــه للنســـاء ، كلما اثيرت فكرة انشـــاء حزب سياسى للمرأة • فيقـــال انهـــن يسعين ، من خـــلال الحصول على القوة السياسية ، أن يحكمن العالم • وهو الامر الذى شهد الكثير من الجـــدل فى مؤتمـــر « نـــيروبى » •

وقد أوضحت النساء ذات الوعى السياسى المتقـــدم ، أن حلم حكم العالم ليس من أهدافهن • ان الهـــدف الاول والاخير هو تحقيق العـــدل فى توزيع مسئوليات الحـــكم والمشاركة فى القرارات سواء داخـــل الاسرة أو داخل أيـــة مؤسسة •

وأشارت النساء الى « مارجريت تاتشر » ، التى يساء

فهم وجودها فى الحكم • ان كونهـا امرأة — فى حـد ذاته — لا يعنى انهـا تحكم لصالح غالبية نساء انجلترا • انها تعبر عن مصـالح النظام الرأسـمالى الانجليزى فى ارتباطه بالنظام الرأسمالى العالمى والذى — بحـكم طبيعته الطبقية والابوية — يدعم وضـع المرأة الأدنى •

وأكدت هؤلاء النساء على حقيقة مؤداها ان الانفـراد بالحكم من جانب أية طبقة — أو أية فئة — لا يعنى الا عالما مضطربا ، استغلاليا ، ممتلئا بالحروب والفتن • لذلك فـان مشاركة النساء فى الحـكم وصنع القـرار ، تعنى عالما أكثر استقرارا ، وعدلا وسـلاما •

ومما يلفت النظر فى مؤتمر « نيروبى » ، انه برغـم الجـدل المستمر حول علاقة المرأة بالسياسة ، فان الواقـع العملى أوضح ان كثيرا من الوفود النسائية غير الحكومية ، كانت تعبر عن هموم بلادها السـياسية دون أدنى شـعور بأن ذلك يخرج عن حدود هموم المرأة •

ويمكن اعطاء بعض الامثلة • نجـد النسـاء من جنوب أفريقيا ، يقفن ضـد النظـام العنصرى الحاكم • وقد قمن بجمع التوقيعات التى تدين لا انسانية هذا النظـام والتى تطالب بوقف المعاملة الوحشية العبارات التى هاجمت تعاون

حكومة « ماركوس » مع حكومة ريجان من أجل شراء الاسلحة التى تقتل البشر وتشعل الحروب •

وقد تكلمت بعض النساء العربيات والفلسطينيات ضد الصهيونية وارتباطها بالاستعمار العالمى الجديد • وأوضحت الفلسطينيات كيف انه فى تجمع نسائى عالمى كهذا المنعقد فى « نيروبى » ، تم اضطهاد الوفد الفلسطينى فى التعبير بحرية عن وجهة نظره ، الحـق الذى أعطى لكل الوفود بمن فيهـا الوفد الاسرائيلى •

ونجد بعض النساء اليهوديات اللائى أعلن انهن ضـد الصيهونية وأوضحن ان اليهودية ديانة كغيرها من الديانات ، أما الصـهيونية فهى حـركة عنصرية استعمارية توسعية ، تستخدم اليهودية من أجل مصالحها فى الاحتلال والتوسع • وتم تدعيم هذا الموقف ، من قبل بعض النساء الامريكيـات اللائى أعلن خجلهن من سياسة ريجان •

واذا كنا نتحـدث عن علاقة المرأة بالسياسة ، فلابـد من التوقف عند المؤتمر الرسمى أو الحكومى المنعقد فى مركز « كينيانا » الدولى • حيث أن الحـكومات بامتلاكها السـلطة والثروة ، تملك قرارات السياسة •

وكم هو هائل الفرق بين المؤتمرين •

فالمؤتمر الشعبى أو غـير الحكومى المنعقد فى جامعـة « نيروبى » ، كان ينبثق حيـوية ، وجاء ممتلئا بالحـركة . انعكاسا لواقع الحيـاة . اشعرنى أن رغبة التغيير ملحـة وضرورية بـل وجميلة ، تسـتحق أن تـكون هدفا للحياة . وكان بسيطا فى أنواع المأكولات والمشروبات المقدمة . مناخ مريح ألفته سريعا . ولا أدرى السبب . هل لاننى كنـت جزءا من وفد غير حكومى تمثله « جمعية تضـامن المـرأة العربية » .. أم لان الفن داخل الانسان ، يقربه من الحقيقة وينفره من التكلف .

والعكس ، نجده فى المؤتمر الرسمى أو الحكومى ، بدءا بالمبنى الضخم المنعقد فيه والذى يعطى احسـاسا بالنفـوذ والثروة . ثم التشـابه فى كلمـات الوفـود الحكومية على اختلافها والتى تؤكد على أن كل شىء على ما يرام وان أحوال النسـاء بصفة خاصة تتحسن .

ويدهشـنا تلك الكميات كثيرة التنـوع فى المأكـولات والمشروبات والتى يرتفع ثمنها مقارنة بما يقـدم فى المؤتمر الشـعبى . حتى نظـرات النسـاء اللائى يمثلن الوفـود الحكومية ، كانت مختلفة عن نظرات النساء الشعبيات . نجد النساء الحكوميات ينظرن الى الناس من أعلى الى أسفل ، لا يبتسمن ، ولا يقدرن جهود النساء فى المؤتمر الشعبى .

وامتد الفرق الى الـزى • حيث تلبس النسـاء الحكوميات بشكل متحفظ ويتحـركن حركات مدروسـة • أما النسـاء الشعبيات فقد اختلطت كل الالوان فى ملابسهن ، يتحـركن بحرية على الحشيش الاخضر فى جامعة « نيروبى » ويتدفقن حـرارة •

بالاضافة الى هذا ، كانت لعبة التوازن السياسى غالبـة على المؤتمر الحكومى • أما المؤتمر الشعبى ، فقد غلب عليه الصـدق والشجاعة •

وأرسى هذا الفرق بين المؤتمرين — دون زيف — الفرق بين الشعوب والحكومات •

وفى آخر أيام المؤتمـر الشعبى ، الجمعة ١٩ يوليـو ١٩٨٥ ، التقت النساء معا فى دائرة للسلام ورددن أغنيـة لكل نساء العـالم تعبيرا عن تضامنهن الجماعى • تقـول الاغنيـة :

« دعن هذه الدائرة تدور حول العالم ولا تتوقف أبدا ، غنين أغنية للنساء فى كل مكان ، المساواة التنمية والسلام » •

تبقى كلمة أخيرة : ماذا عن نتيجة المؤتمر ؟

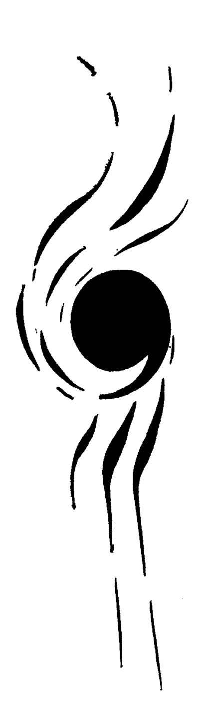
لقد كان لكل وفد شعبى مجموعة من القرارات التى تعبر عن فلسفته ومبـادئه ، وان اتفقت جميعها فى ادانـة كل

أنواع الانظمة الاستغلالية التى تقهر الرجل مرة والمرأة مرتين

والسؤال : كيف يمكن لتلك المجموعة الكبيرة من الاصوات الشعبية ، الوصول الى صنع القرار واحداث التغيير الضرورى من أجل عالم انسانى أكثر عدالة ؟؟

والجواب بالتحديد ، وبصدق لا ادريه . وان كنت على يقين من شيء واحد . هو ان ما فعلته النساء الشعبيات من كل أنحاء العالم فى « نيروبى » على مدى عشرة أيام — وعلى الرغم من بعض الخلافات ولسوء الفهم — كان أكثر من خطوة الى الامام فى رحلة غالبا هى أبعد من الالف ميل .

——————



الفتنــة بين العقــل والجســد

فى عدد روز اليوسف بتاريخ ١٢ أغسطس ١٩٨٥ ، نشر حديث مع د • ليلى العاصى التى نالت الدكتوراه عن دراسة ظاهرة الحجاب •

ولاننى أهتم بقضايا المرأة بشكل عام •• ولاننى فى الوقت ذاته أقوم باعداد دراسة عن العلاقة بين الانفتاح الاقتصادى والحجاب فى فترة السبعينيات ، رأيت ضرورة توضيح نقاط أساسية •

تم استخدام تعبير « المرأة المصرية » ، بشكل عام وغير دقيق • وبما أن الدراسة علمية ، فقد كان من المفروض أن تحدد الباحثة من هى المرأة المصرية التى تناولتها فى الدراسة • فالمرأة المصرية ليست كيانا متجانسا ، بل تنتمى الى طبقات اجتماعية مختلفة وشرائح اجتماعية متباينة داخل الطبقة الواحدة والى أعمار مختلفة والى مهن متفاوتة • وتتفاوت حالتها الاجتماعية المرتبطة بكونها متزوجة — غير متزوجة — مطلقة — أرملة • وهذا التحديد يفيد فى مقارنة الدوافع المختلفة لدى كل فئة فى ارتدائها

للحجاب • وبذلك نستطيع الوصول بقدر الامكان الى صورة متكاملة عن أسباب ارتداء الحجاب •

كان واضحا من سياق الحديث أن الباحثة تؤمن بأن الحجاب اسلامى • وهنا أشير الى أن العودة الى تاريخ نشوء فكرة الحجاب ، توضح أنها موجودة بوضوح فى الديانة اليهودية • ففى الديانة اليهودية تعتبر المرأة جسدا بلا رأس • والرجل يعتبر هو رأس المرأة • ولهذا فان المرأة يجب أن تخجل من طبيعتها الناقصة المدنسة (حيث أن الجسد هو مصدر الغرائز والشرور) ، وتغطى رأسها عند الصلاة • أكثر من هذا ، فان النساء ارتدين الحجاب فى المجتمعات العبودية التى وجدت قبل نشوء الاديان السماوية • وكانت اليهودية أول ديانة سماوية يظهر فيها تغطية المرأة بشكل واضح •

وهنا اختلف مع د • ليلى فى ان الاسلام أجبر النساء على الحجاب • ان الاسلام يدعو المرأة الى الاحتشام سلوكا وقولا وفعلا وعدم التبرج وغض البصر • ولكنه فى هذه الدعوة ، لا يقتصر على المرأة فقط ، بل على الرجل أيضا الاحتشام وغض البصر •

وانني اتساءل فى هذا السياق سؤالا منطقيا وليس دينيا •

اذا كان السبب الاساسى الذى يساق لتغطية المرأة هو حمايتها من معاكسة الرجال ، فهل من العدل أن تدفع النساء ثمن رذيلة يرتكبها الرجل ؟ أليس من البديهى أن نناقش لماذا ينظر الرجل الى المرأة ويستبيح معاكستها • بل أليس من العـــدل ؟

وفى اجـــابة على التســـاؤل عما اذا كان الحجـــاب قد جـــاء رد فعـــل للانفتـــاح ، فان الباحثة تؤكـــد على أنـــه هكذا ، بالاضافة الى ايمان وتدين النســـاء • وهنا لم يتم التوضيح الكافى للعـــلاقة بين الانفتاح والحجـــاب ، والتى أراها المحـــور الاساسى لفهم ظاهرة الحجاب ، وليس الايمان والتـــدين • واننى استبعد دوافـــع الايمـــان والتدين لأن الاســـــلام منـــذ زمـــن طـــويل هـــو الـــدين الرســـمى لمصر • والمصريون والمصريات على مـــر العصـــور عرفـــوا بتدينهم وايمانهم • والحجاب كان ينظر له دائما على أنـــه جـــزء من الاسلام (حتى وان اختلفنا مع هذا الرأى) • لكننا أبدا لم نواجـــه بالحجاب كقضية وكظاهرة فى المجتمع المصرى مثلما نواجه الآن منذ السبعينيات من هذا القرن •

بالاضافة الى هذا ، نجـــد أن بعض علمـــاء السياسة

والاجتماع والانثروبولوجيا يميل الى الاعتقـاد بأن الفترات التاريخية المتصفة بأفكار تشجيع كل ما هو محلى ، وسيادة المناخ الوطنى العام ، غالبـا تكون مصـاحبة بمواقف وقيم أخلاقية ودينية أكثر تحفظا والتى تعكس المزاج العام المرتبط بالقومية والاعتزاز بالشخصية العامة للبلد .

لكننـا نجـد أن مصر تدحض هـذه الرؤية . ففى الستينيات حيث نمو الروح القومية وتشجيع كل ما هو وطنى وتراثى ، لـم يـكن من المألوف رؤية امـرأة محجبة . وفى السبعينيات حينما تبنت مصر خطا أكثر انفتاحا وحرية وبعدا عن ما هـو وطنى وقومى ، ظهر الحجـاب . أليس هـذا تسـاؤلا يطرح نفسـه ؟

وعن علاقة الحجـاب بعمل المـرأة ، أدلت الباحثـة بتصريح خطير . حيث أنها قالت « أنه تم اثبات أن نسـبة زيادة انتاج المرأة المحجبة يفوق بكثير نسبة انتاج المـرأة السافرة ». وببساطة شديدة ، تتهم السافرات أنهن غير مؤهلات للدراسة والعمل لانشغالهن بأمور مظهرية كالماكياج والاختلاط . وفى هذا المجال ، لم توضح الباحثة كيف اثبتت هذا الفرق الخطير بين المرأة المحجبة والسافرة . وكيف تتهم كل النسـاء غير

المحجبات فى أماكن كثيرة من مواقع العمل ، بهذا التقصير دون دلائل .

أيضا تخلط الباحثة بين عــدم التحجب والاستهتار . فالمرأة المحجبــة فقط هى الجــديرة بالاحترام ، والعكس من نصيب غير المحجبة . وهذا حكم سطحى لان الاحترام صفة تتعلق بسلوك الانسان وتفكيره وليس مجــرد ما يلبس من الخـارج .

وأريــد أن أذكــر الباحثـــة ان النســـاء المصريات كن أولى النساء فى العــالم العربى ، اللائى طالبن برفــع الحجاب وذلك فى العشرينيات من هذا القرن . وفى الثلاثينيات من هذا القرن ، كافحن من أجــل التحاق المــرأة بالجامعــة والمشاركة فى الحياة العامة . فى ذلك الوقــت (أى أكثر من ٥٠ عاما) ، لم ينظر أحــد لهؤلاء النساء الرائدات على انهن أقل اسلاما أو تدينا . ومنذ ثورة ١٩٥٢ وحتى الســبعينيات كانت أفكار تحرير المرأة قد اســتقرت فى المجتمع وأصبحت تنــال قبولا لدى قطاعات عريضة من الطبقات الاجتمــاعية المتوسطة والشعبية . وفى ذلك الوقت ، كان من النادر رؤيــة فتاة أو امرأة محجبة .

بل كانت هناك الملابس العملية العادية المناسبة للعمـل والحـركة • واذا حدث ورأينا فتاة محجبة ، كان ينظر للامر على أنه مسألة شخصية بحتة مرتبطة باختيارها الشخصى • فالدين لم يتدخل ليحكم على غير المحجبات (كن الاغلبية) بانهن أقل تدينا ، ولم يتدخـل ليحكم على المحجبة بانهـا أكثر تدينـا •

الآن انعكست الصورة تماما • فالمحجبات الآن يشعرن بأنهن أفضل وأكثر تدينا وأكثر كفاءة وأكثر خلقا •• وأكثر انتاجا •• بينما ينظر للمرأة غـير المحجبة على انهـا ضلت الطـريق السوى •

وهنا الخطورة حينما يصبح الامر الشخصى الذى يختاره الانسان كالزى مثلا ، مقياسا للحكم على الاخلاق والانتاج • ولا ابالغ اذا قلت ان هذا المقياس فى سبيله الى خلق (ان لم يكن قد خلق فعـلا) تفرقة جـديدة تضاف الى أنـواع التفرقة التقليدية المبنية على أساس الجنس والعنصر واللون والديانة ، تفرقة مبنية على طول الفستان وطول اللحى •

وامتدادا لهذا المنطق تقول الباحثة ان فى عهد الانفتاح ، انتصر المصرى المتدين ، على المصرى المنفتح • حيث نجد ترحيبا لظاهرة الحجاب الى الحد الذى جعـل بيوت الازياء تعترف

بملابس المحجبات • وهنا أقول بأن التدين شىء صعب ويزداد صعوبة فى هـذا الزمن الردىء • وهـو يتطلب الكثـير من القدرات الخلقية على قول الصدق وممارسة العـدل وليس الامر مجرد زى طويل يغطى الانسان •

نحن بحاجة الى التوقف حول مقياس التدين والدخول بعمق الى جوهر الدين بدلا من الاكتفـاء بأسهل الطرق الى الجنة أو الى ارضاء الناس أو الى حل أزماتنا بارتداء الحجاب واطالة اللحى • وليس صدفة ان فى كل الازمات التاريخية ، يزداد لجـوء الناس الى الدين • ولكن دائما يحـدث اللجوء للقشور والمظاهر وليس الى عمق الدين •

وبالنسبة لاعتراف بيوت الازياء فانى أقـول للباحثة أن الامـر ليس الا الربح التجـارى وليس تعاطفا مع المصرى المتدين •

وأخيرا أريد التعليق على ما قالته الباحثـة بشأن ما يصح للمرأة وما لا يصح لها عند للحديث مع رجل • اننى أتساءل متى يحين الوقت لنعامل المرأة على أنها كيان انسانى متكامل أهم شىء فيه هو العقـل • نحن لا نقول للرجـل عند حديثه مع رجـل آخـر ، ما يصح وما لا يصح الكلام

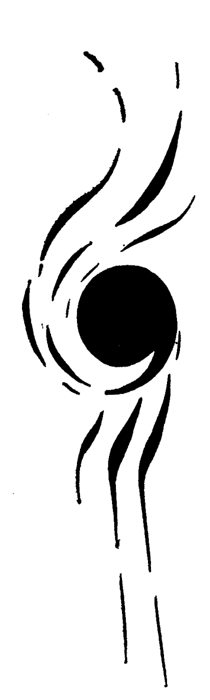
فيه . لاننا نتصـــور ندين لهما عقل واحـــد . اما مع المـــرأة فهنـــاك المحاذير والتعليمات . والسبب اننا ننظر لهـــا على انهـــا اما جســـد سيفترس أو سلعة ستشترى . والوجـــه الآخـــر هو تصوير الرجل دائما على أنه ذئب مفترس أو صياد لا هم له الا الايقـــاع بالمرأة .

ما هذه الصورة المهينة لكل من امـــرأة والرجل .. ؟ ! ولا أحـــد يستطيع أن يقول ان الاســـلام له علاقة بهـــذه النظرة .. نظـــرة الذئب والحمـــل أو الصـــياد والفريسة . ولا أحد يستطيع انكار ان الاسلام يريد المرأة عقلا أساسا وكيـــانا قويا يستطيع الدفاع عن نفسه دون محاذير تحاصرها من المهد الى اللاحـــد .

متى نرفع الوصايا عن المرأة ؟

متى نرتفع الى كامل الانسانية ، وننظر الى المرأة على انهـــا كاملة الانسانية ؟ والانســـانية بالتأكيد عقـــل وحكمة وليست جسدا وفتنة .

واذا كان هناك اصرار على وجود الفتنة فلماذا لا يكون أساسها العقل وليس الجسد . ان الحيوانات نظرا لافتقارها الى التفكير ، تفتن فقط بجسمها وشكلها . ولكن بما ان المـــرأة انســـان والانسان يتميز عن الحيوان بالعقل فان الفتنة يجب أن تجد أساسها فى العقل .



هــل أنتــن مســلمات ؟

« ليس المهم الى أين تأخـذك الرحلة ، المهم الرحـلة نفسـها » •

كانت هذه هى فلسفتى فى كل تجـارب السفر الماضية • هذه المرة أتحول عن فلسفتى وأخـون ما عاهدت نفسى به • هذه المـرة أفكر « الى أين تأخـذنى الرحـلة » ، أكثر من استغراقى فى الرحلة نفسها •

تساءلت : هـل لاننى كنت مريضـة وفى المرض يهتم الانسان أكثر بالمصير والنهـاية ؟

هل لاننى فوجئت بالدعوة الى « كندا » — مونتريال — حيث أسافر لاول مرة •• أعبر الاطلنطى لاول مرة الى قارة أخرى بعيدة ؟

هل لاننى سـافرت كثيرا ، فأصبح التركيز فى « الرحلة نفسها » ، أمرا مكررا لا يثير فى النفس جديدا وبقى « الى أين تأخذنى الرحلة » هو الامر المختلف والجديد ؟

هل لاننى — رغم عدة مرات ناجحة — مازلت أخـاف عالم المؤتمرات ومناخ مواجهة الافكار ؟

كانت معلوماتى عن المؤتمر قليلة .

اعرف الموضوع الرئيسى الذى ستدور حوله البحوث المقدمة .. أعرف مكان جامعة « كيبك » حيث انعقاد المؤتمر .. أعرف اننى سأقدم بحثا عن التحديات التى تواجه المرأة المسلمة فى الوقت الحاضر .. وأعرف اسم المرأة رئيسة المركز المغربى للمعلومات والبحث فى « كيبك » — مونتريال — صاحب الدعوة . وهذا كل شىء .

لم أكن أعرف شيئا عن هذا المركز .. لم أكن أعرف الغرض من اقامة هذا المؤتمر فى مدينة مثل مونتريال .. لم أعرف عدد المشاركين والى أى البلاد ينتمون . لا أعرف شيئا عن الانتماء الاسلامى فى كندا أو على الاخص فى مونتريال الجزء الفرنسى من كندا .

بهذا القدر الضئيل من المعرفة ، المتطلع الى المزيد ، وجدت نفسى داخل جامعة — كيبك — يوم الجمعة ٤ أكتوبر ١٩٨٥ ، أول أيام المؤتمر .

قاعة المؤتمر متسعة ، مضاءة بشكل جيد ، ترفرف فيها أعلام كثيرة ومجهزة بتسهيلات للترجمة الفورية لاحدى اللغتين الانجليزية أو الفرنسية . وعلى الحائط علقت صور لبعض معالم المدن الاسلامية منها القاهرة ، تونس ، بغداد ، أنقرة وغيرها .

وفقا للبرنامج المطبوع فهناك ما يقرب من ثلاثين بحثـا يتناول قضايا الاسـلام والمرأة • لكن عددا قليـلا منها هو الذى لمس قضـايا ساخنة وحيوية شـدت الاهتمام وأثارت المناقشات أكثر من غيرها •

قدمت امرأة من المغـرب وتعيش منـذ فترة طويلة فى فرنسـا ، بحثـا حـول دور النسـاء المسلمات فى بدايات الاسلام • وقد اتخـذت من حيـاة السـيدة « سكينة بنت الحسـين » حفيدة الرسول أساسا لابراز هذا الدور •

خلصت الباحثة الى خطورة اعتماد الحركة النسائية فى البلاد الاسـلامية على أيديولوجيات غربيـة ، دون محاولة خلق أيديولوجية خاصة بها ترتبط بالخلفية الحضارية للاسـلام • وهى الخلفية التى تؤكد أن النسـاء فى بدايات الاسـلام كن أول منتميات الى ما يطلق عليه الآن حركات تحـرير المرأة وكن أول من قاوم التفرقة القائمة على أساس الجنس •

كما أشارت الى ضرورة تطهير التراث الحضارى الاسلامى من محاولات التشويه المتعمدة والتى تصلنا من خلال وسائل الاعلام المختلفة ، سواء فى بلادنا الاسلامية أو فى الغرب • والتى تستهدف تصوير الاسلام على أنه ليس أكثر من قالب

غير مرن من الطقوس لا يتفق مع تطلعات الفئات المضطهدة (من بينها النســاء) الى العدالة والحرية .

وبعد عرض البحــث الذى نــال تقــديرا واستحسانا لموضوعيته والاسلوب الهادىء فى طريقــة العرض ، فوجئنا بفتاة محجبة ترفع صوتها مخترقة التصفيق وتقول بالانجليزية : « لا أفهم سبب كل هذا التصفيق والاستحسان . اننى أسألك أيتهــا المتحدثة باسبم الاسلام : هل أنت مسلمة ؟ » لا أعتقد فلو كنت كذلك لما رضيت لنفســك الظهور بهذا الثــوب . النصائح عن الاسلام ، ومع الاسف جاهلة بأبسط أمــوره وهى ضرورة التحجب » .

ساد الصخب فى القاعة واتجهت اليها منظمة المؤتمــر تسألها الهدوء .

ولقد دهشت ، ليس لمنطق وطريقة عرض التســاؤل ، ولكن لاننى أرى لاول مرة محجبة تنطق بلغــة أجنبية وفى منــاخ أجنبى .

شاب آخر طلب الكلمة . بدأ حديثه « بسم الله الرحمن الرحيم » الصلاة والسلام على أحسن المرسلين وبعد ... « ثم أكمل بالفرنسية . مرة أخرى ، اندهش لمواجهتى هذا المزيج وبهذا التحول السريع .

وكان سؤاله « أريد فقط أن أعرف هل هذا مؤتمر يشارك فيه من ينتمى الى الاسلام أم مؤتمر عن الاسلام .. أسألكن هل أنتن مسلمات ؟ وأريد اجابة واضحة وقاطعة هل حقا أنتن مسلمات . وشكرا » .

وفوجئت أنه لم يبق فى القاعة لمعرفة الاجابة بل خرج فورا بعد اعطائه الكلمة .

جاء رد المرأة المغربية : « لقد أعطتنى هذه التساؤلات فكرة حية عن الازمة الحقيقية التى نعانيها كشعوب اسلامية . نحن لا نستطيع تحمل وجهة نظر أخرى دون أن نهين صاحبها ونرميه بالاتهامات حتى لو كان هذا فى كندا » . وهنا ساد التصفيق لمدة دقيقتين .

أكملت : « لم يتطرق الحديث الى جوهر البحث أو نتائجه ، بل تركز كله فى تساؤل حاد « هل أنا مسلمة » وأقول أن هذا سؤال لا يجرؤ على سؤاله الا أجهزة البوليس فى بلد ارهابى ديكتاتورى .

وساد التصفيق مرة أخرى .

ثم عقبت على مسألة التحجب قائلة « نحن بحاجة الى احترام الآخرين فى ممارستهم للدين على أنه تجربة شخصية ، يضع فيها الانسان كل فلسفته وأفكاره . نحن

بحاجة الى بناء جسور مشتركة ترتكز على جـوهر الدين ولا يجب أن نسمح لاختيارنا كيف نلبس أن يفرق بيننا . هذا تحد حقيقى أمام النساء المسلمات » .

بحث آخـر تقدمت به امـرأة فلسـطينية تعيش فى الولايات المتحدة وتقوم بالتدريس فى احدى جامعاتها عنوان البحث « المأزق الحضارى للمرأة الفلسطينية » . وفى رأيهـا يتمثل هذا المأزق فى بعدين . الاول ، يرتبط بالمرأة الفلسطينية التى تعيش تحت الاحتلال الاسرائيلى . ويتمثل فى عـــدم حسم أولوية التحرر بشكل كاف .

هل تعطى الاولوية للتحرر من القهر الموروث والمستمر حتى الآن من قبل النظام الابوى ؟ أم تعطى الاولوية للتحرر من القهر الممارس من قبل الاحتلال ؟

والثانى يرتبط بالمرأة الفلسطينية التى تعيش فى الولايات المتحـدة أو فى أوربـا الغربيـة . حيث تواجـه بمشكلة الاغتراب الحضارى والاحساس بالعزلة والعجز ، والاضطرار الى تقبل الوضـع الذى يعاملها كانسانة من الدرجة الثالثـة أو الرابعة أو انسانة بلا أدنى هوية .

أثار هذا البحث احدى النساء التى علقت بالفرنسية : « أرى انك لست فقط مبالغة بل مخطئة أيضا » .

ان حديثك يمكن أن يثير استياء كثير من النساء الفلسطينيات • فانا فلسطينية مسلمة وأعيش فى كندا — مونتريال — منــذ ما يقرب من خمسة عشر عاما وأعرف أخريات مسلمات وغير مسلمات يعشن فى أوربا أو أمريكا • لم نشعر بأننا مغتربات أو منعزلات عن قضايا الوطن أو اننا نلاقى تفرقة فى المعاملة • أنت نفسك دليل على ذلك • فانــت تعيشين وتدرســين فى أمريكا وتأتين للمؤتمرات العالمية • أين اغترابك وانعزالك ؟ ثم ان أولوية الصراع قد حســمت • الاولوية للتحــرر من الاحتــــلال ، الاولويـــة لتحـــرير الارض المحتـــلة • أرجـــو أن تراجعى نفسك قبل اعلان مثل هــذا الكلام على المـــلأ » •

بهدوء ترد المرأة الفلسطينية ، رغم شعورها بأن عــددا كبيرا من الجمهور يؤيد التعــليق • « أنا وأنــت وغــيرنا من النساء الفلسطينيات ، اللائى يعشن ويتمتعن فى أمريــكا وأوربا ، أمر لا يعنى أن المرأة الفلسطينية بشكل عام قــد حررت جزئيا و تعيش فى الغربة دون مشاكل • نحن الاستثناء ولا يجب ن نقــوم بالتعميم من خلال تجاربنا الشخصية • وبالنسبة لاولوية الصراع ، فاننى أؤكــد لك أن عــددا كبيرا من النساء الفلسطينيات مازلن يناقشن الامر • وأنا شخصيا أختلف معك فى حسم الامر لتحرير الارض المحتلة • ان المرأة

الفلسطينية « أرض محتلة » من الرجل والاب وكل قيم النظام الابوى . ولذلك فالاولوية يجب أن تعطى للامرين معا .

بحث آخر دار حول مشاكل النساء المسلمات اللائى هاجرن مع اسرهن الى كندا بسبب الظروف السياسية فى بلادهن . قدمت البحث امرأة من بنجاديش وتعيش منذ فترة فى كندا . تعرض البحث الى مشاكل هذه الاسر المهاجرة والتى تركزت فى صعوبة الاندماج الفعال والمتكامل فى المجتمع الكندى مع الاحتفاظ فى الوقت ذاته بالمقومات الحضارية الاسلامية كما هى فى بلادهن الاصلية . ركز البحث على عنصر اللغة كعقبة أساسية تمنع هذا الاندماج . ويزيد الامر صعوبة عدم تعاون الحكومة الكندية فى هذا المجال . هناك أيضا عدم تعاون الحكومة بشكل كاف فى تقديم الخدمات المختلفة والتسهيلات الاجتماعية والمالية لهذه الاسر .

أثار هذا البحث مناقشة أوضحت أن هناك جهدا مفتقدا من تجمع تلك الاسر المسلمة المهاجرة الى كندا للضغط على الحكومة الكندية حتى تمد يد العون فى المجالات التى تسهل الاندماج الكامل فى المجتمع الكندى .

وأيد البعض دور الاسر المسلمة المقيمة فى كندا للقيام بنشاط ايجابى فى التوعية بالاسلام الحقيقى والتصـدى لمحـاولات التشويه • فحتى الآن لـم يمتد هـذا الدور الا للشـكوى والانتقـاد •

وبالنسبة للبحث الذى قدمته فقـد ركز على التيـارات الدينية المتطرفة والتى تحاول استخدام الاسلام لتغطية المرأة واعادتها الى البيت بل وافقادها كل ما كسبته من حقوق فى الفترات الماضية • الامر الـذى سيفقد المجتمع بأسره كل مظاهر تقدمه • وكان البحث حريصـا على التأكيد على أن الاسلام ـ عكس ما يعتقده البعض خاصـة فى الخارج ـ ليس مسئولا عن مظاهر تخلف المـرأة أو تخلف المجتمـع • الامر يعود أساسا الى النظام الاجتماعى والسياسى السـائد فى فترة معينة •• هذا تحد حقيقى أمام النسـاء المسـلمات وعليهن فعل شىء للوقوف ضد هذا التهديد لحقوقهن ••

علقت فتاة محجبة بالانجليزية : « أنا مصرية وأعيش هنـا فى كندا منـذ عشرين عاما •• ولا أفهم لمـاذا دائمـا الربط بين التيارات الدينية المتطرفة ومسألة الحجاب ، الحجاب ليس تطرفا بل أنـه رمز لمـا يجب أن تكون عليـه هـوية المـرأة المصرية المسلمة » •

سألتها « تقولين انـــك مصرية • هل تعرفـــين اللغـــة العربية ؟ » •

ردت : « أتكلم الانجليزية والفرنسية » •

أكملت : « معك حق ، فالحجاب يؤخذ عندنا على أنه رمز للهوية » • لكننا نقابل فتيـــات محجبات فى مصر من خريجات المدارس الاجنبية والجامعة الامريكية فى « القاهرة » يتقن اللغات الاجنبية ولا يتمكن من التعبير باللغـــة العربية • هل هذه هوية المرأة المصرية المسلمة ؟ ونقابل أيضـــا محجبات مصريات مسلمات يعرفن تاريخ ومعالم نيويورك ، وباريس ، وموريال ، أكثر من معرفتهن بتاريخ ومعالم القاهرة •• هل هذه هى الهـــوية المقصودة للمرأة المصرية المسلمة ؟ الهـــوية يجب أن ترتبط أساسا بالدور الذى يلعبه الانسان فى تحـــرير نفســـه وبلده • وهـــذا لا يمكن الا بالتمكن من فهم لغـــة وتاريخ وحضارة هذا البلد •

رجل يعمل فى السلك الدبلوماسى الكندى طلب الكلمـــة • تساءل بالفرنسية : « لماذا فقط فى الاسلام نسمع عن التيارات المتطرفة ماذا فى الاسلام يسمح باستخدام الدين ولا تسمح به الاديان الاخرى » •

قلت : « نخطىء لو تصـــورنا أن ما نشـــهده الآن من تيارات تستخدم الدين أمر مقصـــور على الاسلام » •

أنه ظاهرة عالمية . هنـــاك تيـــارات تستخدم المسيحية وتستخدم اليهودية كما يتم استخدام الاسلام بل هناك أيضا احياء لاديان غير سماوية مثل البوذية . والا كيف نفسر جزءا كبيرا مما يحدث فى لبنان والهند وجنوب أفريقيا ؟

أعقب هذه الجلســـة مناقشـــة طويلة ، كان محـــورها النظرية والتطبيق فى الاسلام .

وفى نهاية المؤتمر ، كان لى هـــذا الحوار القصير مـــع « فاطيمة ببيان » رئيسة المركز المغربى للمعلومات والبحـــث ـ منظم المؤتمر ـ .

سألتها : « ماذا كان الهدف من اقامة هذا المؤتمر فى (مونتريال) » .

قالت : « كنا نريد تصحيح صورة الاسلام والمسلمين . خاصة بعد ثورة ايران التى استغلتها وسائل الاعلام لاختصار الاســـلام الى مجرد « شادور » أو « حجـــاب » . كنـــا أيضـــا نريد كسر حلقة الصمت واللامبالاة من المسئولين هنا عن مشاكل الاسر المسلمة فى كنـــدا . وأخيرا نريد خلق جسور مشتركة بين النساء المسلمات فى بلاد مختلفة .

قلت : « هل كان هناك حرص على التمثيل الجغـــرافى لاكبر عدد ممكن من البلاد الاسلامية » ؟

قالت : « رغم اننا جهة شعبية ، وأغلبنا يعمل تطـوعا ولا نتمتع بامكانيات مالية كبيرة ، الا اننـــا حرصنا على دعوة أكبر عدد يمثل مناطق مختلفة من العالم الاسلامى » •

قلت : « لاحظت وجود عدد من الرجال المشـــارك فى البحوث • أعتقد ان هذا أمر ايجابى ـ عكس ما تراه بعض النساء ـ هل حدث هذا بشكل متعمد أم بطريق المصادفة ؟ » •

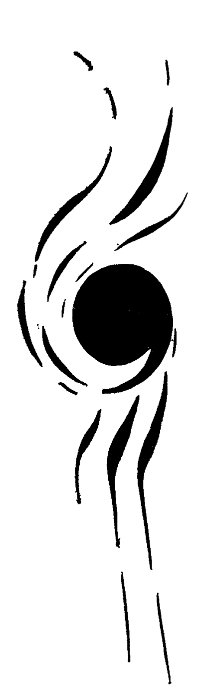
ردت : « بالتأكيد تعمدنا عدم الفصل • فاذا كنا نناقش مشاكل المرأة فى المجتمع واذا كنا نتطرق لامكانيات التغـــير الاجتماعى ، فكيف نستبعد الرجل كطرف فى هذا التغير ؟ » •

انتهى كل شىء عن المؤتمر ، ووجدتنى عائدة يوم الثلاثاء ٨ أكتوبر ١٩٨٥ • أجلس داخـــل الطائرة الفرنســـية حيث رحلتها المباشرة رقم ١٢٤ من « باريس » الى « القاهرة » •

واندهشت لاننى فجـــأة وجدتنى اســـتعيد فلســـفتى القديمة ، ومرة أخـــرى لا أنشغل بـــ « الى أين تأخـــذنى الرحلة » ، بـــل مستغرقة تمـــام الاستغراق فى « الرحـــلة نفسها » •

ومازالت حائرة لهذا التحول السريع •

●———●



من يعرف أعمـــاق المـــرأة ؟

فى عدد روز اليوسف الصادر فى ٢٨ يوليو ١٩٨٦ ، كان هناك حوار مع د • عادل صادق استاذ الطب النفسى بجامعة عين شمس ، حــول « ابحــاره » الممتــد عشرين عاما فى أعمــاق المرأة •

وعلى نتائــج هــذا « الابحــار » ، أود التعليق على مستويين • المستوى الاول يرتبط بنظرة الطب النفسى الى المرض النفسى بشكل عام — النظرة التى تبناها د • عادل صــادق — المستوى الثانى ، يرتبط بنظرة هذا الطب النفسى الى أعماق المرأة النفسية بشكل خاص •

أولا : النظرة الى المرض النفسى

ذكر د • عادل صادق ان أحــدث النظريات العلميــة تعرف المرض النفسى بأنه خلل هرمونى •

وهنا نبدأ بقــول ان « أحــدث » النظريات ليســت بالضرورة أكثر النظريات لمسا للحقيقة ، واذا كنــا نتحــدث عن النفس البشرية وما يرتبــط بمرضها وصحتها ، فاننــا ندرك مدى العمق والشمولية اللذين نحتاجهما •

فالنفس البشرية ، لا توجد فى فراغ . كما انها لا تتحرك فى وسط بيولوجى وذبذبات هرمونية . هى تتحرك أولا وأساسا وأخيرا فى واقع اقتصادى واجتماعى وسياسى وأخلاقى فى فترة تاريخية محددة ، تتغير بالضرورة وتتغير معها المقاييس الاجتماعية على اختلافها وبالتالى فان معايير الحكم على أفضلية نظرية عن أخرى ، هى قدر ادراكها للعلاقة الجدلية المستمرة بين نفس الانسان وهذا الواقع المتشعب والمتغير ، أى ادراك العلاقة بين داخل الانسان وخارجه ، أما اختصار فهم المرض النفسى الى وجود خلل هرمونى ، أمر لا يعجز فقط عن تفسير الظواهر النفسية المعقدة ، ولكنه تفسير مضلل فى الوقت ذاته .

وتنتمى نظرة د . عادل صادق للمرض النفسى الى نظريات الطب النفسى الغربى السائدة التى تقصر امكانية الاعراض المرضية على الفرد ، بمعنى ان فقدان الصحة النفسية بدرجة أو بأخرى ، بشكل أو بآخر ، ظاهرة فردية ، تتهم الفرد بالانحراف والشذوذ والخلل . وعلى هذا نجد تفسيرات للمرض النفسى انه « عجز الفرد عن التكيف مع المجتمع ، أو أن هناك عوامل وراثية ساعدت على شذوذه أو أن هناك عدم توازن هرمونى ، وغيرها من التفسيرات التى تبحث عن الخلل داخل الانسان وليس فى المجتمع حوله .

فالمجتمع طالما مستمر فى وظائفه فى انتاج السلع والبشر ، فهو على ما يرام •

وتجد هذه النظرة أساسها ، فيما يعرف بفكرة « المتوسط المثالى » • فحكم المجتمع على شخص بأنه مضطرب عقليا أو مريض نفسيا ، يفترض مسبقا وضع نمط مألوف وثابت للسلوك الانسانى ، أو « موديل « عام للطبيعة البشرية هو « المتوسط » والاختلاف عن هذا « المتوسط » ، لا يتصوره المجتمع الا مرضا واختلالا فى الفرد • وبالتالى ، فان التقويم والعلاج يجب أن يوجها الى الفرد لا الى المجتمع • وفكرة المتوسط ، فكرة خطيرة خاصة فى مجال مثل الطب النفسى أو التحليل النفسى ، فهى لا تلغى فردية الانسان واصالته وتميزه التى تعتبر احدى دعائم الصحة النفسية فقط ، ولكنها أيضا بتحويلها الانسان الى رقم حسابى أو قيمة احصائية ، تخلق قوالب اجتماعية مغتربة عن ذواتها •

لكن هناك تيارا حديثا ورائدا ، يرى العكس تماما • يرى أن المجتمعات هى المريضة نفسيا وهى المضطربة عقليا ، فهى تعجز عن توفير الدعائم الاربع الاساسية للصحة النفسية : الحرية ، الحب ، العدالة ، والتواصل الانسانى الذى يكسر عزلة الانسان ، لكنه لا يلغى فرديته

وتميزه • وبالتالى فان الاتهام يجب أن يوجـه الى المجتمع بنظمـه وقوانينه ومؤسساته وأهـدافه وقيمه ، ويعترض أصحاب هذا التيار على فكرة « المتوسط » البشرى الذى صنعها المجتمع ، ويرون أن مقياس رقى وانسانية المجتمع يكون قدر تشجيعه لتميز الافراد القائم على المســاواة ، فالتاريخ يؤكد على أن التقدم والابداع لم يجئ الا على أيدى من أسماهم المجتمع « منحرفين »، شواذ ، مضطربين أو مرضى• وليس على أيدى « النمط المتوسط » وقد يكون هذا جزءا من فلسفة « نيتشه » التى رفضت قيم « الكم » على حساب قيم « الكيف » وهى القيم التى سادت بعد الثورة الفرنسية • فالثورة الفرنسية أكدت على قيم المساواة بين البشر ، بدافع من الرغبة فى العدالة • ولكن تطور الفكرة خلق « قيم المتوسط » التى تحول دون الوصول الى ما أسماه « الانســان الاعلى » الذى يفوق مستوى الحيوان ومستوى الانسان « المتوسط »، ليصل الى وجود أكثر تميزا وقدرة على الابداع والقوة •

ولسنا فى مجال حصر أصحاب هذا التيار الرائد ، ولكننا على سبيل المثال ، نشير الى « رولو ماى » والى « اريك فروم » الذى كتب الكثير عن فكرة مســئولية المجتمع فى أمراض الافراد ، خاصة فى كتابه المتميز « المجتمع العاقل » •

ولكن بما أن الاعتراف بمرض الافــراد واضطرابهم

أسهل وأقل احتياجا للشجاعة من الاعتراف بمرض المجتمع واضطرابه لان علاج الاخير هو الثورة الشاملة ، فان التيار السائد هو اتهام الفرد وليس المجتمع ، بل وهناك تدعيم مستمر وتحديث لهذا التيار .

ان « فرويد » الذى لم يكن ثوريا ، بل مصلحا اجتماعيا للنظام الرأسمالى فى القرن التاسع عشر ، ذكر أن تطور المجتمعات والحضارات ، انما يجىء على حساب نمو ذات الفرد وشعوره بالحرية ، وما أسماه من مصطلحات « العصاب الجماعى » « وأمراض المجتمعات المتحضرة » يشير الى ذلك . لكن فرويد كان يرى أن هذه الامراض ضرورية ولا مفر منها لنشوء الحضارة . وكان الهدف من تحليله النفسى ، أن يتحكم فى اللاوعى ليصبح متكيفا ومنسجما مع هذه الامراض ، لا لينطلق للثورة كما رأى تلميذه يونج ، على سبيل المثال .

السؤال اذن : أى نوع من المجتمع يحق له فرض مقاييس المرض النفسى والصحة النفسية ؟

وفى أى ظروف تطلق هذه المقاييس ؟ .. ولمصلحة من تدعم تيارات بعينها من المعلومات النفسية ؟

ثانيا : النظرة الى الحياة النفسية للمرأة

فى رحلتى الاخيرة الشـــهر الماضى الى أوسلو عاصـــمة النرويج ، حيث أقيم المعرض الدولى الثانى للكتاب النسائى ومؤتمر استراتيجية المرأة ، كان هناك ندوة عن « أبوية العلوم الاجتماعية والنفسية » .. تناولت الندوة بشكل عام عــدم حيادية العلم ، فهو طبقى أبوى يعكس النظام العالمى الذى يحكم أغلب المجتمعات ، وتناولت بشكل خاص المنظور الابوى فى علم النفس والتحليـل النفسى ، فكل الحقائق النفســية التى تلقتها المرأة (ومازالت تتلقاها) ، عن طبيعتها النفسية ودورها فى الحياة والنظرة الى مراحل عمرها المختلفة ودور الرجل فى حياتها النفسية ، وغيرها هى حقائق مشــوهة ، تعــكس الارث الابــوى فى التحليــل النفسى ، وأوضحت المحاضرات فى الندوة ، أن « فرويد » الذى أطلق عليه رائد التحليـل النفسى فى العصر الحديث ، والتى مازالت أفكاره تدرس فى كليات الطب ، يرى أن الانسان الكامل هو رجــل المرأة فى نظره « رجل ينقصه العضو الذكورى » وعقــدة الاخصاء هذه كما أسماها محور معاناة المــرأة فى الحيــاة ، وهى لا تتجاوز هذه المشكلة الا بالارتباط بالرجل بالزواج والانجاب ، والمرأة وفقا لآرائــه هى أكثر نرجسية وتأثرا

بالعوامل اللاشعورية ، وعاجزة ، ولا تكتمل الا بربط حياتها بالرجل بيولوجيا واجتماعيا ، ولذلك فهو لا يتصور الا الحب الجنسى بين المرأة والرجل ، فالحب الانسانى لا وجود لـــه عنـــد « فرويـــد » لان هـــذا الحـــب يفترض التكافؤ ، و « فرويد » وضع المرأة فى مكانة أدنى وانتهت النـــدوة بالتأكيد على ضرورة وضع حد لاغتراب النساء فى مجال العلم والفلسفة ، وكفى ما تكلم الرجال عن المرأة عاكسين أمراضهم النفسية وعقدهم ومصالحهم الشخصية ٠

تحـــدث د ٠ عادل صـــادق ان المرأة حينمـــا لا تكتفى ولا تقنع بدورها الحقيقى والاساسى فى الزواج والامومة ، تلهث وراء الرجـــل وتنافسه فى مجالاته ٠ وهـــذا يعرضها للضغوط النفسية والعصبية ٠ والكلام يتضمن أن العـــلاج الفعال للمرأة لتتفادى المتاعب النفسية ، هو فى القناعة بأن الزواج والرجـــل والامومة ، محـــور وجودها ٠ وهنا أقـــول ان الـــذى يسبب الضغوط النفســـية والعصبية على المـــرأة ويعرضها للاضطرابات العقلية المختلفة ، هو عدم تفهم الرجل والمجتمـــع لحقيقة وجـــودها الانســـانى ٠ ورفض تطـــور امكانياتها العقلية والنفسية أو عدم تصور أن لها امكانيـــات عقلية ونفسية أصـــلا ٠ أو فرض وظائف اجتماعية بحـــكم أن لها « رحمـــا » أو مواجهة حقائق مشـــوهة على صفحات الجرائد والمجلات ٠

وأقول للدكتور عادل صادق ، ان المرأة حين تخرج للعمل ، لا تنافس الرجل ولا تلهث وراءه . فالعمل والانتاج والتطور ليس حكرا على الرجل وليس احدى قدسياته المطلقة ، حتى نتهم المرأة العاملة انها تعتدى على حق ليس لها . كما ان الرجل ليس هو الغاية المثلى من الحياة وليس جنة الله على الارض ، حتى تلهث وراءه . المرأة حين تتعلم وتعمل وتشارك فى تطوير المجتمع ، انما تلهث وراء انسانيتها ، وتلهث لتصنع نموذجا للمرأة الشريفة التى تدرك أن الشرف هو السعى للرزق وعدم التبعية لاحد . المرأة تعمل لانها تلهث لاستخدام جهازها الفكرى والعقلى وليس فقط الجهاز البيولوجى لمصلحة وامتاع الرجل ، وكيف لا تلهث المرأة فى مجتمع يعطى لها الاولوية مهما كانت كفاءتها ، فى أعمال البيت والزواج والانجاب ، فالله حين أعطى المرأة القدرة على الانجاب ، لم يرد لها أن تكون سجينة هذا الدور . بل ليكون جزءا من حياتها ، فالرجل لا يمنعه كونه زوجا وأبا عن العمل .

حديث د . عادل صادق عن العمل والامومة والزواج فى حياة المرأة ، افترض مسبقا أن الام المتفرغة للبيت أقدر على التربية والاخلاق من الام العاملة خارج البيت .

وهنا نقول : ان القدرات الشخصية والمؤهلات النفسية التى تحتاجها الام فى التربية واعطاء قدرة للاطفال لخلق جيل مبدع وحر ، قدرات ومؤهلات تتعدى قدرات ومؤهلات عمليات الطبيخ والكنس والغسيل ، هى قدرات ومؤهلات ترتبط الى حد كبير بوعى ونضج شخصية الام ، ترتبط بمدى قدرة الام على ادراك حقوقها كانسانة متكاملة وليس فقط كوعاء للانجاب ، ترتبط بقدرتها على فهم العلاقات بين ظواهر الحياة وعلى تكوين فلسفة لهذه الظواهر • والا فانهـا لن تعطى الطفل الا الاكل والشرب والحنـان السـاذج فحتى الحنان يحتاج الى فلسفة • وهذه القدرات والمؤهلات ليست ثابتة ، ولا يمكن أخذها مثل « الروشتة » الجاهزة من كتاب أو ندوة بل تتغير وتتطور مع تغير وتطور الحياة ومع تفاعل الام مع هذه الحياة ، بشكل ايجابى وخلاق • وهو تفاعـل يتجاوز — بطبيعة الحال — حـدود ما يسـمونه « المملكة المطبخية » •

قال د • عادل صـادق وكأنه مديح للمـرأة « المـرأة لا تخون الا اذا حطمها زوجها » • وهنا يدهشنى بل يرعبنى هذا المنطـق • فالكلام معناه أن المـرأة تظل فاضلة وتصر على فضيلتها ، طالما أن الرجل يحسن معاملتها ، ومسـتمر فى حبها والاهتمام بها • ولكنها تتخلى عن الفضيلة حينمـا يسىء الرجل معاملتها الى حد تحطيمها •

ببساطة ، يقول د • عادل صادق • أن الفضيلة عند المرأة مشروطة بمعاملة الرجل وليست جزءا أصيلا فطريا فى طبيعتها • وكان المرأة تسعى للفضيلة ، ليس حبا فيها ، ولكن جسرا للوصول الى حب الرجل ورعايته وأقول للدكتور عادل صادق ، ان الفضيلة للمرأة التزام أمام نفسها بالصدق أولا وأخيرا • وليس له أى علاقة بمعاملة الرجل لها • وأحب أن أؤكد للدكتور عادل صادق ، ان هناك ملايين من النساء يعانين من معاملة الرجل السيئة سواء بالكذب أو عدم الاحترام • لكنهن لا يتحولن الى كاذبات مثله • فالرجل ليس مصدرا لاخلاقهن ولا يملك فضائلهن ، ليتحكم فيها بتصرفاته •

فى رأيه عن معنى الحياة • يقول د • عادل صادق ان لا شىء يعوض الرجل والمرأة عن الحب • فلا العمل ولا الشهرة •• ولا الارتباطات الاجتماعية •• تكون بديلا عن « اثنين يجلسان معا يحب كل منهما الآخر » • رغم أننا نعترف بالحب فى حياة كل من الرجل والمرأة ونرى أنه ضرورى لجعل الحياة أجمل وأكثر خيرا • ولكن التأكيد الشديد أن لا شىء آخر فى الحياة يعوض عن الحب ، مبالغة ليست فى محلها وتعوق الصحة النفسية • فجزء أساسى من مقومات الصحة النفسية ، هو تعدد نشاطات

الانسان واهتماماته وعدم تبعيته لشيء أو شخص أو فكرة • فاذا أنكرنا معنى كل الاشـياء وبقى الحب هو كل شيء • فاننا نساهم فى اشعار الانسان بلا جدوى حياته طالما يفتقد الحب • والاجدى أن نقول : ان الحب ضرورى وأساسى • ولكن الانسان يمكن أن يكمل حياته بقدر معقول من الرضاء ، لو منعته الظروف من علاقة حب • كما أن « جلوس اثنين يحب كل منهما الآخر » • أمـر يصبح ممـلا •• راكدا •• وساذجا •• اذا لم يرتبط هذا الحب بعمل متميز لكل من الطرفين • واندماج كل منهمـا فى حيـاة اجتماعية • تثرى أنفسهما ، وتثرى علاقة الحب نفسها •

فى اجـابة له عن كيف تحتفظ المـرأة بحب الرجـل على الدوام قال د • عادل : ان على المرأة « رؤية كل شيء من خلال الرجل » • قال « حطاه فى دماغها » •

واتساءل •• أى نوع وأى طبقة من النساء يتكلم عنها ؟ أنعود لعصر الحريم والجوارى حيث لا هم للنساء الا التفكير فى ارضاء الرجل واسعاده ونوال حبه ؟ وهل من الصحة النفسية •• أن يرى انسان ما رجل أو امرأة •• كل شيء فى الحياة من خلال انسان آخر ؟

أعتقد أنه من المسلمات فى الصحة النفسية الآن ، أن دوام الحب يرتبط بقدرة كل من الرجل والمرأة أن « يحط فى دماغه » أشياء أخرى غير الطرف الآخر . مثل الرغبة فى تطوير الحياة ، وتطوير النفس ، والمشاركة الانسانية مع الآخرين ، والترقى فى العمل ، والاقبال على الحياة . والثقة بالنفس . وغيرها مما ينمى الانسان ويجعله أكثر قدرة على حب الطرف الآخر .

عن الشيخوخة وكيف انها تنال من حيوية المرأة . ولكنها لاتنال من حيوية الرجل . يفسر د. عادل صادق الامر أنه « ذكاء من الرجل وغباء من المرأة » . فالرجل لا يهمه تقدم العمر أو ظهور التجاعيد . لانه ينظر الى عطائه كشىء مستمر لا علاقة له بالعمر . بينما المرأة . تخاف من التجاعيد وتربط عطاءها بالعمر .

مرة أخرى .. يحدث تغييب للواقع الاجتماعى وما يفرضه من قيم ازدواجية . فهناك قيم للمرأة وأخرى للرجل . أساس هذه القيم أن الرجل قيمته فى عقله وتفكيره . وبالتالى فان عطاءه لن يتأثر بالعمر أو التجاعيد . فى حين أن المرأة هى جسد جميل أو دمية صغيرة جميلة ، تزين المنزل

وتنجب الاطفال وترضى الرجل •• وبالتــالى فان عطــاءها بالضرورة يتأثر بالشيخوخة • فالجسد والجمال ومظـــاهر العطاء الشكلية عمرها قصير ومحـــدود • واذا كان هنـــاك اصرار على استخدام تعبيرى الذكاء والغبـــاء • فالمجتمـــع هو الذى ينمى الذكاء فى الرجل وهـــو الذى ينمى الغبـــاء فى المـــرأة •

يعتقد د • عـــادل صـــادق ان المجد الحقيقى للمـــرأة هو لحظة الانجاب • الذى تستحق المرأة عنه لقب « صاحبة السمو الملكى » •

واتساءل بدهشة •• ما هذا التضخيم الشديد لعملية الانجاب فى حياة المرأة ؟

الانجاب فى حد ذاته عملية يشـــترك فيهـــا الانســـان مع الحيوان • اذن ليس هناك ما يدفعنا لاطلاق لقب السمو الملكى على صفة تجمع الانسان والحيوان • واذا كان لابـــد من اطلاق الصفة ، فمن البديهى أن تطلق على الصفات التى يتفوق فيهـــا الانســـان على الحيـــوان • والا كانت ملايين النساء فى القرى والمـــدن المصرية اللائى انجبن • ملكات • واذا كن كذلك حقـــا ، فلماذا يشردهن الـــزوج فى لحظـــة قرار طلاق ، لنزوة أو رغبة فى امرأة أخرى (مشروع ملكة) •

اذا كنا مصرين على لقب ملكة على كل امرأة تنجب ، فعلينا اذن — لنكون منطقيين وعادلين — خلق القوانين التى تحمى مستقبل هؤلاء الملكات . فالملكة تملك مصيرها بيدها . وليس العكس .

كما أن تضخيم عملية الانجاب الى هذا الحـد ، لابد أن يؤذى شعور نساء كثيرات لم ينجبن لظروف مختلفة ، ولكنهن عاملات فى المجتمع ولهن قيمة فكرية واجتماعية .

ثم ما هذا الكم الهائل من الاتهامات والتشـويه وسوء الفهم . التى يطلقها د . عادل صادق على حركات تحـرير المرأة والجمعيات النسائية ؟

أنا أفهم ان نختلف حول بعض الافكار وكيفية ترجمتها الى فعل . ولكنى لا أفهم عمليات الاتهام التى تنتهز كل فرصه ملائمة أو غير ملائمة للحط من قدر العمل النسائى .

لقد اتهم د . عادل صادق النساء اللائى يؤمن بوجود دور انسانى خارج البيت ، ويسعين الى تحقيق الذات دون الاقتصـار على الطبيخ والغسـيل وتغيير ملابس الـزوج والاطفال ، بانهن معقدات ، لهن مشاكل شخصية مع الرجل . أما مطلقات ، غير متزوجات أو مهجورات من الرجل . وهن يندفعن الى الجمعيات النسائية بتأييد من نســاء مهجورات .

ما هذا الاسلوب غير العلمى وغير الانسانى ؟ بل ما هـذا القدر من الاهانات العلنية التى يعطى د • عادل صادق نفسه الحق فى اطلاقها ؟ لمصلحة من ؟

أولا •• الطلاق أو عدم الزواج أو خلو حياة المرأة من الرجـل ليس فى كل الاحـوال مشكلة • أحيانا يكون الطلاق أو التأخـر فى الزواج أو البعد عن الرجـل حـلا بل وفى مصلحة المرأة •

السـؤال •• أى نـوع من الزواج ؟ وأى نـوع من الطلاق ؟ • وأى نوع من الرجال ؟

ثانيا •• ان حركات تحرير المرأة فى العـالم كله فى الشرق والغرب أصبح لهـا احترام ووجـود وصوت دولى مسموع • وهى تنظم العديد من المؤتمرات التى تتناول كل مجالات المعرفة الانسانية فى ارتباطها بقضايا المرأة وهناك منظمات نسـائية تتعرض للخطر لانهـا تشن حملات ضـد انتهاك حقوق الانسان فى أماكن كثيرة • ولانها تساند حركات تحرير شعوب العالم الثالث ، وعيـا منها بالترابط العضوى بين تحرير الانسان وتحرير المجتمع •

وأسأل د • عادل صادق : هل نحكم على رائدات الحركة النسائية مثل « هدى شعراوى » ، و « سيزانبراوى » ،

بالتعقيد ؟ هل نتهم النساء اللائى استشهدن فى ثورة ١٩١٩ ، بالشذوذ لانهن تركن البيت وشاركن فى تحرير الوطن ؟

وهل نقول عن « قاسم أمين » انه معقد من المـــرأة ، لانه أراد أن تخلع الحجاب وتتعلم وتتطور ؟ .

وأحب أن أصحح للدكتور عادل صادق معلومة بسيطة عن حركات تحرير المرأة . فالشعار ليس كما قال : « لماذا أرضع وأعطل عملى » . بل « لمـــاذا يكون دورى الاساسى أو الوحيد فى الحياة « ان ارضع » هذا هو الجدل المثار .

وينهى د . عادل صـــادق « ابحـــاره » فى أعمـــاق المرأة المصرية ، بانها تائهة وممزقة داخليا . والسبب تناسيها لدورها فى البيت ولان « الرجل يضحك عليها ويخرجها من البيت للعمل » .

وهنا أقول : ان الرجل ليس وصيا على المرأة ليقرر لها الخروج من البيت أو القبوع فيه . ان المرأة المصرية خرجت الى العمل للاسباب نفسها التى يخـــرج لها الرجل للعمـــل . لم يكن خروجها كما قال الدكتور عادل صادق ، خدعة من الرجل . بل نتيجة لازدياد وعيها وادراكها العلاقة بين تحررها

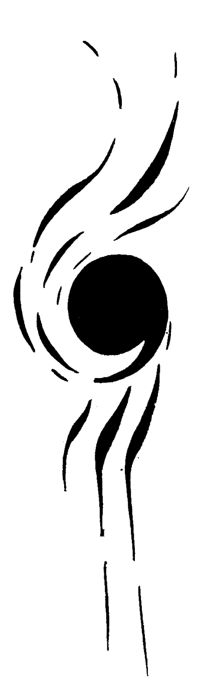
وتنمية المجتمع • كما أن خروج المرأة الى العمل ، كان مرأة عكست النهضة الحضــارية فى المجتمع المصرى فى العقــود الاخيرة • ومن الغريب أن الفلاحة المصرية تخرج الى العمل منذ آلاف السنين دون أن يثار حــول خروجها أى اعتراض أو جــدل • هل الفلاحة المصرية ليست امرأة ؟

وعن التمزق الذى تعيشه المرأة المصرية • فان الرجل المصرى أيضا تائه وممزق • وهو يهرب أكثر من المرأة من مسئوليته كزوج وكاب • حتى يتفرغ للوصــول اما الــى الفلوس •• أو الشهرة •• أو علاقات نسائية أخرى حرة — أهداف العصر الوثنية •

تعليق أخــير على أســئلة الحــوار • لمــاذا دائمــا ترتبط المرأة بمواضيع الحــب والفوز بالرجــل والشيخوخة والحمل والامومة والزواج والجمال فقط ؟

وحينما نسأل عن الرجل ، نتطــرق الى مواضيع الفكر والفلسفة والدين والســياسة والــدعم والتــلوث النــووى والديموقراطية وسباق التسلح ومستقبل التيارات الدينية ؟

ولا يمكن أن انهى هذا التعليق قبل أن اطمئن د • عادل صـــادق اننى فىدفاعى عن قضايا المرأة وفى انتمائى لحــركات تحرير المرأة ليست لى أى مشاكل شخصية مع الرجل •



الشجرة المثمــرة

تقــذف بالحجـــارة

افتتحت مجموعة من الشابات العربيات مؤتمـر المـرأة وتحديات القرن العشرين ، الذى نظمته جمعية تضامن المرأة العربية من ١ — ٣ سبتمبر ١٩٨٦ •

قامت هذه المجموعة بتلخيص تاريخ الجمعية وما تقـوم به من نشـاط فى الوقـت الحاضر وكذلك ما تحـلم به فى المسـتقبل •

واستكمالا لهذه الروح الشعبية الشابة ، قامت مجموعة أخرى من الشـابات والشباب ، بالحـديث عن التجـربة الذاتية ، كيف انها فجرت نقطة التحول وادراك ضرورة التغيير• وكان هذا الحديث شيقا وممتعا ، فقد خلق الربط بين تجربة الانسـان الشخصية ومشاكل المجتمع من خـلال نمـاذج حية ، وليس من خلال شعارات وخطب تتشدق بحب ساذج للوطن وتتفادى الحديث عن الانسان الذى يعتبر الدافـع والغاية من أى اصـلاح أو تغيير •

كان الحضور الكبير والحماس غير العادى للتسجيل فى المؤتمر ، والحرص على أخذ البحوث ، ظاهرة تستلفت النظر • وفى ظل المنـاخ الحالى الذى تخيم عليه روح السلبية والتردد

والخـوف ، مع وجود تعطش شـديد لمبادرات تضيف الى الوعى الحقيقى وتعيد روح التجـديد ، فان هذه الظـاهرة تكتسب أبعادا هامة .

وقد لفت النظر أيضا التواجد الكبير للصحافة ، سـواء المصرية أو العربية أو الاجنبية .

ضمن عدد الحضور الكبير استلفت النظر مجمـوعة من النساء لا يزيد عددهن على أصابع اليد الواحدة ، دخلت منذ البداية بنية مسبقة لتحـويل مجرى الامور ، وتغيير النظـام الذى وضعته رئاسة المؤتمر .

قبل أى شىء ، رفضت هذه المجموعة التسجيل للمؤتمر الذى يقتضى ملء استمارة ودفع مبلغ عشرة جنيهـات مصرية وأصبحت اللجنة المنظمة بين أمرين : اما القبـول أو الرفض ، ونظـرا للزحام الشـديد وضيق الوقت فقـد تجـاوزت اللجنـة عن هذا التصرف بالاضـافة الى أن النية المسـبقة لم تكن قد اتضحت بعد .

وبعد افتتاح المؤتمر ، فوجىء الحاضرون والحاضرات ، بواحدة من هذه المجموعة ترفع صوتها وتقترح : « دقيقـة حدادا على شهداء الحرب اللبنانية » وكما هو معروف فان هذا الاقتراح يعد تعديا على نظـام المؤتمر وعدم احترام

واحراج لرئاسة المؤتمر فليس من حق الضيوف — خاصة، اذا لم يسجلوا للمؤتمر — التدخل فى كيفية سير المؤتمر • واذا كان هناك اقتراح ، فلابد أن يعرض على رئيسة المؤتمر أولا ، التى تحدد بدورها واستنادا الى طبيعة المؤتمر، وأهدافه وبنوده ، القبول أو الرفض • أما اقحام بند فجائى كالحداد على شهداء لبنان ، فهو نوع ردىء من الممارسة السياسية ويتضمن نوعا من المتاجرة بقضية الحرب اللبنانية •

كما أنه يعمل ضد القضية نفسها لان الوقوف دقيقة حدادا ليس الا شكلا سطحيا مستهلكا من الوطنية ولا يعكس أى قيمة حقيقية للنضال الوطنى المؤيد لشهداء الحروب •

والاقتراح يتضمن اتهاما « جاهزا للتحفز » بعدم الوطنية لكل من تساوره نفسه ليس فقط برفض الاقتراح أو مناقشته بل حتى التمهل فى الوقوف • تجاوزت رئاسة المؤتمر عن هذا التدخل بل وشكرت السيدة التى قدمت الاقتراح •

سيدة أخرى من المجموعة التى لا تتعدى أصابع اليد الواحدة ، اقترحت بالاسلوب نفسه ، الغاء لجان المؤتمر الاربع (السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية) وأن تناقش كل البحوث المقدمة (ما يقرب من خمسة وعشرين

بحثـا) فى قاعة الافتتـاح الكبرى وقد تصـدى أعضـاء وعضوات المؤتمر اللاتى حضرن للمناقشة الهادئة والعميقة من أجل الفهم ، لهذا الاقتراح ، الذى لو تحقق لتحول المؤتمـر الى ساحة منفرة من الخطب والمبارزات السياسية لا جـدوى منهـا .

كان هذا الاقتراح جزءا من الخطـة المسبقة لافسـاد المؤتمر أو على الاقل اظهار أن هناك أسلوبا أفضـل للعمـل والتنظيم تملكه هذه المجموعة الصغيرة من النساء ، وتفتقر اليـه اللجنة المنظمة .

فى الجلسة الاولى للمؤتمر والتى تناولت البعد السياسى لقضية المرأة ، قدمت د . نـوال السعداوى (مصر) ورقة عن التحديات السياسية التى تواجه المرأة العربية وقدمـت د . فاطمـة المرنيسى (المغـرب) ورقة عن الديموقراطية ومفهوم السلطة ثم قدمت ميرفت التلاوى (مصر) ورقة عن قرارات الامم المتحدة فيما يخص العمل والحياة السياسية للمـرأة .

والغريب ان لا واحـدة من تلك المجموعة الصغيرة من النسـاء ، ناقشت أى شىء ورد فى أى بحث مقـدم ، رغم أهمية هذه البحـوث وتركيزها جميعا على الناحية السياسية .

ولا يسع المــرء هنا الا أن يشعر بالتناقض فلو انهن حقيقة مهتمات بالامور السياسية ، الى الحــد الذى يجعلهن يتدخلن لتغيير نظــام المؤتمر للوقوف حدادا على شهداء الحــرب اللبنانية ، لكن حريصات على مناقشة الثلاثة بحــوث المرتبطة بالحياة السياسية للمــرأة فى المجتمع العربى • لكنهن بدلا من ذلك ، قدمن تساؤلات لا علاقة لهــا من بعيد أو من قريب ، بالبحــوث المقــدمة مثل تســاؤل : « كيف نتحــدث عن قضية المرأة فى هذا المؤتمر ولا نتحدث عن اضراب عمــال السكة الحــديد » •

وبدأت عضوات المؤتمر بالرد ، لكن كان واضحا أن هذه المجموعة لم تهتم بسماع الرد ، فى الحقيقة لم تــكن هذه قضيتهن بل كانت شغل الحاضرين والحاضرات عن الموضـــوع الرئيسى المنبثق من كل بحث قدم وأكثر من هذا ، أردن الغاء جدول أعمال المؤتمر وصرف النظر عن بحوثه وفرض جدول أعمال خاص بهن يتضمن الآتى :

— مناقشة اضراب عمال السكة الحديد •

— شهداء لبنان وفلسطين •

— أخذ موقف من مقابلة مبارك وبيريز •

وقد رد عليهن عدد من العضوات واسكتنهن تماما بالعلم والمنطق والوعى •

فى اليوم التالى بعد انقسام المؤتمر الى لجانه الاربع ، ذهبت تلك المجموعه الصغيرة من النساء كلهـا الى اللجنـه السياسية لم تذهب أى واحدة الى اللجنة الاقتصادية مثـلا أو اللجنة الثقافية حيث نوقشت قضايا التبعية الاقتصـادية والثقافية فى علاقتها بالمرأة ، لكنهن غير مهتمات بقضـايا المرأة فى ارتباطها بقضـايا الاقتصاد والثقافة • كل الخطة المرسومة كانت فى اقتحـام اللجنة السياسية للخروج بقرارات سياسية لا علاقة لها بقضية المرأة أو بعمـل المؤتمر مثل ادانة مقابلة مبـارك وبيريز •

ورفضت عضوات اللجنـة السياسية اتخـاذ أى قرار يشير الى خصوصية الوضع المصرى والا فتح البـاب لمناقشة خصوصية وضع المغرب مع البوليساريو أو خصوصية العراق فى حربه مع ايران •

وأدركت عضـوات اللجنـة السياسية ان منطق هـذه المجموعة الصغيرة من النساء معناه الخروج بقرارات مضحكة مجزأة ، كما أنه منطق يفتقر الى الحساسية لان المؤتمر عربى وليس مصريا ، حتى تتغلب عليه خصوصية مصر •

وخرجت اللجنة السياسية مثلها فى ذلك مثل اللجـان الثلاث الاخرى ، الى قرارات وتوصيات عميقة وهامـة ، تمس قضايا المرأة العربية فى شمولها وتكاملها •

وفى اليوم الاخير للمؤتمر ، قرأت د • فاطمه بابكـر (السودان) التى انتخبت سكرتيرة عامة للمؤتمر ، البيـان النهائى للتوصيات بعد قراءة البيان ، اصيبت تلك المجموعة الصغيرة من النساء باحباط شـديد ، حيث فشلن فى فرض التوصيات السياسية المصرية على العضوات العربيات •

ولكنهن لم ييأس وبدأن فى محاولة أخيرة يتساءلن عن تمويل المؤتمر •

وكانت غالبية العضوات منشغلات بمناقشة التوصيات ، الى الحد الذى أبعد موضوع التمويل عن الاذهان • لكن هذه المجموعة عادت الى طرحه من حين لآخر • ويدفعن ببعض النسـاء الساذجات التابعات لهن ذوات المصـالح الشخصية والادعاءات السياسية للزج به من بين الصفوف •

واعطيت الكلمة الى د • نوال السعداوى رئيسة الجمعية ورئيسة المؤتمر لتوضيح تمويل المؤتمر شرحت د • نـوال انهـا أرسلت الى عديد من الجهـات المصرية التى تمـول المؤتمرات • فلم يأت مليم واحـد • أرسلت الى عديد من الجهات العربية التى تقوم بالتمويل • فلم يأت مليم واحد • ونظـرا لان جمعية تضامن المرأة العربية مسجلة فى الامم المتحدة فان لها الحـق فى طلب تمويل من الجهات الدولية •

وقالت د • نوال انهـا أرسلت مائة خطاب الى الجهات الدولية فلم يستجب الا ثلاث هيئات هى التى مولت المؤتمر : هيئة نوفيب بهولندا ، مكتب فورد بالقاهرة ومكتب أوكس فام بالقاهرة • وأوضحت د • نوال أن الجمعية تقبـل فقط التمويل غير المشروط وذلك حتى لا يمس استقلال الجمعية • وكشفت د • نوال عن الشائعة التى يروج لها بعض الناس ، ان المؤتمـر ممول من اسرائيـل والتى تستهدف شـل حركة جمعية تضامن المرأة العربيـة لانهـا مستقلة عن أى حكومة وعن أى حزب ، وتسير بنجاح بهذا الاستقلال •

واندهشت د • نوال من موقف بعض النسـاء اللائى يعتبن عدم شكر جهات التمويل فى الجلسة الافتتاحية وذلك حتى يعلم كل الناس منذ البداية مصدر التمويل • فالشـكر معناه دعاية للجهة الممولة وهذا الذى يجب أن يدان • وثانيا لان الجمعية لا تعتبر التمويل من الجهات الاجنبية منحـة أو تبرعا • فهى مواردنا وموارد العالم الثالث التى تراكمت فى الدول المتقـدمة صناعيا بسبب العـلاقات الاقتصـادية العالمية غـير المتكافئة ونحـن نسـترد مواردنا ، نسـترد حقـا لنا •

أيضا عبرت د • نوال عن دهشتها حينمـا كان موقف بعض النساء منتقدا على طول الخط • بسبب تفاهات تعكس

مصالح شخصية أو حزبية . قالت « ألا يكفى اننا نفتح باب الجامعة العربية لاول مرة بعد عزلة مصر لمؤتمر شعبى نسائى » . « ألا يكفى ادانة الصهيونية علنـــا على لســـان شـــابات » . « ألا يكفى هذا التجمع العربى للنســـاء فى محاولة للتوحـــد » . واختتمت د . نوال السعداوى كلمتها بتحـــذير عضوات المؤتمر من الادعاءات السياسية المختلفة الممتزجة بالاحقـــاد الشخصية الصغيرة . قالت : « نحـــن نواجـــه تيارين . تيار يتهمنـــا بالكفر من قبل الجمـــاعات الاسلامية السلفية . وتيار حزبى يســـارى يتهمنا بعـــدم الوطنية لاننا لا نتبعه وكلاهما خطر . لا أحـــد له حـــق اتهامنا فى ديننا . لا أحـــد له حق اتهـــامنا فى وطنيتنا . وكلاهما ينطبق عليه عبارة د . طه حسين حينما قال « الذين لا يعملون ويضيرهم أن يعمل الآخرون » .

كان لهذه الكلمة صدى كبير قوبل بالتصفيق الحـــاد من قبل عضوات المؤتمر . لكننا نفاجأ بسيدة من تلك المجموعة الصغيرة من النساء ، تنفعل وتصرخ وترمى الفاظا اندهش لهـــا الجميع . وسألتنى واحـــدة من عضـــوات المؤتمـــر « لمـــاذا تصرخ . هل شعرت بالضيق لكشف الامور ونجاح المؤتمر ؟ » وحاولت بقية المجموعة من النساء ذوات النية المسبقة ، استبقاء النساء العضـــوات لاستكمال النقاش .

ولكن د • فاطمة بابكر رئيسة الجلسة الاخيرة اصرت على انهـاء الجلسـة واستنكار أسـلوب الصراخ والزعيق • وفوجئنا بمجموعة النساء ذوات النية المسـبقة يجـرين فى الطرقات منتقدات الاسـلوب « الديكتاتورى » للدكتـورة فاطمة بابكر رئيسة الجلسة فى انهـاء المؤتمر • ويجرى معهن بعض الصحفيات والصحفيين الذين شدهم الصراخ والزعيق والذين يمارسون العمـل الصحفى على أنه اثارة للرأى وليس تنويرا له • فكانوا يجرون لالتقاط أية بادرة سلبية توصـف بأنهـا « خناقة نسائية » وما الى ذلك من افـراز العقلية السطحية والتى تخفى وراءها مصالح معينة تنتهز أية فرصة للاقلال من الجهد النسائى الشعبى الحر •

وبدأنا نسمع أشياء غريبة من تلك المجموعة الصغيرة من النساء • سمعنا انتقادا للمؤتمر لانه وجـه دعوات فـردية لهذه المجموعة وليس بصفة انتمائهن الى الاتحـاد النسائى الديمقراطى • وبسؤال رئيسة الجمعية د • نوال السـعداوى قالت ان المؤتمر تعمد ارسـال كل الدعوات بشكل فـردى شخصى • وهذا طبيعى فى مؤتمر تنظمه جمعية شعبية مستقلة عن أى جهة حكومية أو أى تيـار حزبى • وقالت د • نوال ان الجمعية لا تعترف بالاتحـاد الا اذا ضم قطاعات عريضة جماهيرية تمثل الشعب كله • كيف يكون اتحـادا نسـائيا

وهو يضم نساء من فئة واحــدة وتيار واحــد ؟ وأوضحت أن هناك مجموعة أخرى من النساء غير المنتميات الى الاتحــاد النسائى الديموقراطى أو مستقلات عن أى حــزب ، لكنهن يصــدقن كل شيء يصــدر عن هــذه الجهـــات • وأكثر من هــذا يحــاولن التشكيك فى عمل الآخرين المستقلين • وهذا ميكانيزم نفسى معروف حينما يعجز بعض الناس عن الفعل داخل أحزابهم وتنظيماتهم • وذكرت د • نــوال أن مؤتمر نيروبى العالمى للمرأة شهد المأساة نفسها • حيث قلبت الحقائق عن جمعية تضامن المرأة العربية ، من قبل مجموعات مشابهة من النساء • حيث اندهشن من النجــاح الذى حققته الجمعية وموقفها الواضــح من اسرائيــل ورددن شــائعات عكسية اننى عضوة فى جمعية اسرائيلية • كذلك اليوم يرددن أن الجمعية تأخــذ تمويلا أمريكيا رغــم موقفنــا الواضح من أمريكا •

نقاش دخلت فيه أنا شخصيا مع احدى هؤلاء السيدات ذوات النية المسبقة • قالت بانفعــال شديد : « لابــد أن نعرف ومنذ البداية مصدر تمويل المؤتمر • هذا موضــوع حساس » • قلت لها : « حســاس بالنسبة لمن ؟ » قالت « لنــا » ســألتها « من أنتــم أو من أنتن ؟ » قالــت : « نســاء حزب التجمع » • سألتها : « ولمــاذا يكون مصدر

تمويل مؤتمر جمعية التضامن أمرا حساسا لكن وتنشغلن به كل هذا الانشغال » قالت : « حتى نأخذ موقفا منه » قالت : « أولا : ومنذ البداية وأنتن على موقف محدد من الجمعية لانها لا تتبع الحزب . ثانيا : أعتقد أن داخل حزب التجمع نفسه الكثير من القضايا « الحساسة » التى تنتظر منكن أخذ موقف بهذا الحماس » .

وتساءلت بعد هذا النقاش لماذا لا يكتفى كل انسان بحل المشاكل « الحساسة » فى المكان الذى ينتمى اليه ؟

لماذا تترك نساء الاحزاب أحزابهن وانقساماتها الداخلية وقضاياها المتشابكة . ليواجهن مشاكل فى جمعية لا يشتركن فيها وغير موافقات عليها منذ البداية ؟ لماذا فى كل نشاط تدعو اليه جمعية تضامن المرأة العربية ، يأتين بالنية المسبقة نفسها دون ملل أو كلل . ويلقين الاتهامات المستهلكة مثل أننا نخبة مثقفة منعزلة عن جماهير النساء العريضة وأننا يجب أن ننزل الى الناس فى الشوارع لكسر العزلة . وينسين شيئا هاما وهو أن النخبة المثقفة واقع كل التنظيمات والاحزاب فى الساحة العربية . وانها لا تعبر عن الجماهير الشعبية . وانها منعزلة عن الواقع الفعلى للناس .. على الاقل فى جمعية تضامن المرأة العربية ، النساء هن اللائى سعين الى التنظيم بإراداتهن الحر وليس بقرار .

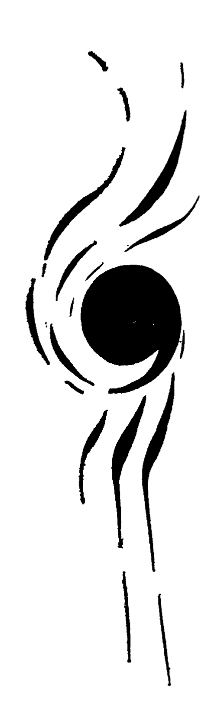
ويبدو أن الانتقـادات التى يجب أن يوجهنها الى الحزب • هى التى يتهمن بهـا الناس •

وهناك شىء غير قابل للشك • وهو أن لو كل واحـدة من هؤلاء النساء الحزبيات ركـزت طاقتها بهذا الحمـاس الذى رأيناه فى المؤتمـر ، الى اصلاح الخلل الداخلى لحزبها أو كسر العزلة ، لحلت مشـاكل كثيرة • أبسـطها أن تترك الاخريات ليعملن دون تدخل •

تبقى كلمـة أخـيرة :

لان النجـاح غير المستند الى حكومة أو سلطة ما ، فى عالمنا يثير الريبة والشك والحقد والغيرة • لان جـزءا من كوارث الواقع المتخلف ، هو ترديد الشائعات عن جهـل • لان الشجرة المثمرة هى فقط التى تقذف بالحجـارة • ولان العمل المخلص يأخذ وقتا طويلا • فاننى أتوقع المزيد من الحجارة ليس فقط على جمعية تضامن المرأة العربية • ولكن على أى عمل حـر مستقل ليس فقط عن منافذ السلطة أيا كان نوعهـا ، ولكن عن أمراض مجتمعاتنا المتخلفة •

والتـاريخ فى النهاية ــ يكتـب الاعمـال ولا يكتـب الامراض •



الا الاحســـاس بالامـــان

هل يمكن أن يتصور أحد أن طلقات الرصاص هى الحل لمشكلة الديون الخارجية • وهى الوسيلة لاستعادة القـومية العربية وتدعيم الانتماء الافريقى لمصر وتنمية التعـاون بيننا وبين دول العالم الثالث ؟

هل يمكن أن يتصور أحد ان طلقات الرصاص ستكون الحافز لاستعادة مدخرات المصريين فى الخـارج واستثمارها محليا ، تقوية للعملة المصرية ، وتشجيعا للانتاج الوطنى ؟

هل تصلح طلقات الرصاص من تدهور بعض مرافـق الخدمة الاساسية ؟

هل تخفف من نسبة عادم السيارات وضوضاء الطريق ؟ وهل تزيد من اللـون الاخضر ؟

هل تجدى طلقات الرصاص فى ايجاد فرص عمل وسكن وترفيه للشباب ؟

هل توفر المواد التموينية الضرورية • هل تلزم أصحاب التاكسيات باستخدام العداد فى محاسبة الزبائن ؟

هل تفيد طلقات الرصاص فى توجيه وسائل الفن الى ما ينمى الذوق والحس الجمالى ؟

أم تراها تعوض احباط الزوجات وخيبة أمل الازواج • وتهبط بمعدل الزيجات الفاشلة ؟

وهل تساهم طلقات الرصاص فى الدعاية الحسنة للدين واثبات حق من يدعى أنه صاحب قضية ؟

هل يتصور أحد أن تحل طلقات الرصاص معاناة النـــاس وتدعم الانتماء ؟

من يتصور هذا ، يكن كمن يتوهم أن كسب رضـــاء الله ودخـــول الجنة ، يكون باطالة اللحى والتحجب والامســاك بالمسبحة • وفصل الجنسين فى الاماكن العامة ، والزعيـــق فى الميكروفونات لاجبار الناس على فعل الخير •

ان حب الوطن وحب الله وحب البشرية ، تجربة فكرية وعاطفية ليست منفصلة عن تفاصيل ممارستنا اليومية • وتكمن آفتنا الكبرى فى اننا أصبحنا نعيش فى حـــالة من « الوثنية الحديثة » • فالحب أصبح فكرة مجردة جامدة ومسجونة فى درج ما مغلق فى العقـــل ، وليس لها أية صلة حقيقية بمـــا نسلكه يوميا • حـــب الوطن ، يعنى النرجســـية الشـــديدة المرضية لرؤية مزايا الارض التى نمتلكها • ومن لا يرى الوطن كما نرى ، يصبح مهددا فى شرفه ورزقه •• والآن ، كما يحـــدث أخيرا ، امتد التهديد الى العمر وحـــب الله ، أصبح حبا أعمى للطقوس •

من يتصور الحب بهذا المفهوم ويمارسه . فانه لا يعرف الله . ولا يحب الوطن . وليست له قضية حقيقية .. فالقضية الحق والصدق فيها ، يساعد الانسان على الرؤية الموضوعية . القضية الحق والصدق فيها ، يجعل الانسان أكثر حكمة ورقة .

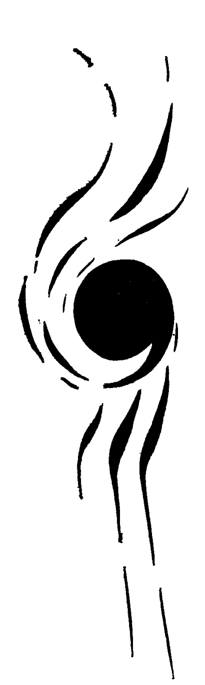
أين نحن من تلك المعانى الانسانية التى لا يختلف عليها جوهر كل الاديـــان ؟

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفســـه »
« من أنقـــذ روحـــا واحدة كمن أنقـــذ العالم كله » ومن دمر روحا واحـــدة كمن دمر العالم كله .

نحن لا ننكر المشاكل الخطيرة التى نواجهها . ولا نهرب من حقيقة أن كل فعل له رد فعل . ولا نزعم ان كل شىء على ما يرام ، ولـــكن أن تكون طلقات الرصـــاص ، أداة من أدوات الاصلاح ، فهذا ما نرفضـــه ونطالب بالتصدى لـــه .

كل أنواع المعاناة تهون ، الا تهديد الاحساس بالامان .

————



انتهــازية فى ثيــاب الدين

من أجل بقاء مصر ، أعلى من محـــاولات اثارة الفرقة باستخدام الدين .

من أجل بقاء مصر ، مجتمعـــا يســـوده القانون وليس الارهاب .

من أجل مصر الديمقراطية ، وليس مصر فرض الوصايا .

من أجل استعادة قيمة الشجاعة ، لتســـمية الاشـــياء بمسمياتها .. ومواجهة المشاكل دون خوف من النتائج ، دون تردد فى دفع الثمن . من أجـــل خلق قيمة قومية نلتف حولها ، تعيد التفاؤل والثقة والهوية . من أجـــل تحقيق معنى « الدين لله والوطن للجميع » .

فتحت الجامعة العربية أبوابها ، واضاءت أنوارها لندوة « الوحدة الوطنية وحرية الفكر » مساء الاثنين ٢٣ مارس ١٩٨٧ ، والتى نظمتها جمعية تضامن المرأة العربية مع المنظمة المصرية لحقوق الانسان .

لم تكن الندوة مجالا للتحـــاور والنقاش بين الضيوف . قدر ما كانت بؤرة تجمعت فيهـــا خيوط رؤية ، ألقت الضوء الكاشف على ما نشهده الآن من اثارة للاختلافات الدينية .

خيط أول للرؤية ، ركز الاضاءة على العوامل الداخليـة التى تمهد الطريق للتطرف الدينى • تجىء فى مقدمتها الدعـوة الى اكتمـال دائرة الديمقراطية ، واكتمـال دائرة العدالة الاجتماعية • ففى ظل وجـود أزمة اقتصـادية ، وصعوبة الحيـاة ، تنمـو تربة صالحة لاشـكال من السلوك العدوانى الذى يتخـذ الاختلافات بين الناس سندا له • وأوضحهـا وأكثرها خطـورة ، هو الاختلافات القائمـة على الدين • واتفقت الآراء حول محدودية هذا السلوك العدوانى الصادر من قلة مريضة تجاوزت حدودها • ولكن الاستهانة بالامـر أو الخـوف من مواجهته بحزم ، يؤدى الى انتشاره •

خيط آخر للرؤية ، يضيف الى العـوامل الداخليـة ، استغلال التيارات السياسية للمد السلفى للدين المعتمد على تفسيرات رجعية وشـكلية لمعنى الايمـان • والذى وصفته الندوة بانه سبب رئيسى يشجع على اثارة الفتنة الدينية أكثر من هـذا ، فان التيـارات السياسية ــ باشكال ودرجـات متفاوتة ــ قامت بخلق الجو الملائم لاحتمالات حدوث فتنة فمن موقف التملق لهذا المـد السلفى للـدين الى موقـف التحالف ، الى موقف اقحـام الدين فى الدعاية الانتخابية • فنرى ملصقات « المرشح الاسلامى » ، « الاسلام هـو الحـل » ، « أعط صوتك تدخل الجنة » •

ويكشف ضوء أخر عن مسئولية الدولية ، فحقيقة عدم تصـدى أجهزة الدولة بشكل حـازم ورادع ، بالتشريعات القانونية التى « تجرم » أى عمل ارهابى قائـم على الدين والسماح باطلاق أسـماء اسـلامية على المرافق التجـارية والمصرفية ، مثل « المجمـوعة الاسلامية للسـيارات » ، و « المستشفى الاسلامى » • كذلك عدم وضـع ضـوابط وحـدود لاقامة بيوت العبادة المختلفة ، كلهـا أمـور تعتبر مداخل للفتنة القائمة على الدين •

نذكر كلنا فى العام الماضى ، حينما انتشرت ظاهرة تعليق ملصقات دينية على زجاج السيارات ، وكان يمكن أن تتحول الى مدخل يثير الحساسيات الدينية • لكن الدولة تدخلت بمنع كل أنواع الملصقات • فاختفت فورا ، نحـن فى حاجـة الآن الى مثل هذا الوعى الشجاع ، مترجما فى صـورة فعل حاسم • وهو أمر ضرورى للمحافظة على هيبة الدولة • حيث تستمد قوتها وشرعيتها من قدرتها على تأكيد سيادة القانون وتوفير الامان لكل أصحاب الديانات على أرضها • وجـوهر سيادة القانون ، هو سيادة منطق « الصواب والخطأ » ، « دستورية أم عدم دسـتورية » وليس منطـق الحـلال والحـرام •

خيط للرؤية أخر ، يركز الاضاءة على العوامل الخارجية المشجعة لمناخ الفتنة الدينية •

حيث يكشف عن قــوى خــارج المجتمع ، من مصلحتها المساهمة المستمرة فى خلق بذور التفرقة أو اشعالها اذا ظهرت داخليــا .

فالخطر الاكبر على اسرائيل ، ليس هو تعدد الديانات أو اختلاف المذاهب الدينية فى شعوب المنطقة العربيــة . ولكنه الوحدة العربية والوحدة الاهليه داخل كل شعب على حــدة . وعلى هــذا ، فان ســياسة « فــرق تســد » ، تتجدد باستمرار . وهنا نكون أمام فتنة سياسية ، ترتدى ثيــاب الفتنة الدينية . وهى تشــير ليس فقط الخــلاف بين المسلم والمسيحى مثلا داخل البلد الواحــد . ولكن بشــكل أكثر ، الخــلاف بين المسلم والمسلم . كمــا هو حادث الآن فى واحــد من أكبر الخــلافات بين المذهب السنى والمذهب الشيعى ، الى حــد القتــل والحرب .

ولان الندوة بدأت مختلفة ، فلم تنته بالتصفيق . بــل اتفق على تشكيل لجنــة من الحاضرين والحاضرات سميت « لجنــة الاخــاء القومى » ، وصياغة بيــان ينادى الشعب المصرى لوقوف صفا واحــدا بكل فئاته وطبقاته ودياناته ، ضــد كل محاولات التفرقة القائمة على الدين .

بمعنى أخر ، خلقت نواة تضافر وطنى مستنير من أجل حمــاية مستقبل مصر .



لمــاذا انتحــرت داليــدا ؟



* تعددت الاسباب والموت ليس واحدا ٠

هناك الموت ضعفا أو يأسا ٠ هناك الموت قلقا ٠ هناك الموت حزنا أو غيرة ٠ وهناك الموت شيخوخة أو مرضـــا ٠ هناك الموت جوعا ٠ هناك الموت شرفا ٠ وهناك الموت ضعة ٠ هناك الموت صدفة القضاء والقدر وهناك الموت بفعل فاعل مجهــول أو معلوم ٠ هناك الموت مرة وهناك الموت مرات ٠ هناك الموت حادثة وتنسى وهناك الموت الذكرى والحكمة ٠ هناك الموت عشـــقا ٠

وحينما تنتحر فنانة مشـــهورة مازالت تحتفظ بشـــبابها وجمهورها ومشاريعها الفنية ، وقـــد أعلنت أنهـــا لن تعتزل الا عـــام ٢٠٠٠ ،

حينما تنتحر فنانة مشهورة فى المجتمع الذى حطم سجن الباستيل ، فى اليوم نفسه الذى اطلق فيه ثورة اتخـــذت من الحرية والاخاء والمساواة شعارا لها ،

حينما تنتحر فنانة مشهورة فى المجتمع الذى انجب بلا انانية « اراجون » و « بول أيلوار » فى الشعر « مانيه » و « كوربيه » فى الرسم . « بلزاك » و « هوجو » و (مدام دى لافاييت) فى الادب . « ديكارت » و « سارتر » فى الفلسفة . « سان سيمون » فى ريادة الاقتصاد الاشتراكى « سيمون دى بوفوار » فى الفكر وتحـرير المرأة . « مدام دى سيفينى » فى كتابة الرسائل » روسبيير « فى النضـال الثـورى ،

حينما تنتحر فنانة مشهورة فى المنـاخ الذى استمتع بموهبة « ديبوسيه » فى التأليف الموسيقى ، وعظمة » سيمون سينوريه » فى التمثيل ، وتميز « ليلوش » و « تريفو » فى الاخراج السينمائى ، وسحر « اديث بياف » فى الغنـاء ،

حينما تنتحر فنانة مشهورة فى البـلد الذى فجـر ثورة الشباب العالمية الحديثة فى صيف ١٩٦٨ . وفى البـلد الذى ارتبط اسمه بموجة الرواية الجـديدة .

حينما تنتحر فنانة مشهورة فى مدينة يكفيها جمـالا ، برج ايفل ، وميدان الكونكورد ، وكاتدرائية نوتردام ، والحى اللاتينى ،

حينما تنتحر فنانة مشهورة فى البـلد صاحب المـزارع

الخضراء ، وأشهى الاطعمة ، وأجمل العطور • وبيت المـودة العـالمى ،

حينما تنتحر فنانة مشهورة فى البلد صاحب اللغة التى تشـبه الانغـام ،

حينما تنتحر « داليدا » فى قمة المجـد وقمة الفـن وقمة الرشاقة • فى باريس ، يواجهنا نوع غريب من الموت ، نوع يضطرنا نحن الاحيـاء للتوقف والتساؤل ، على الاقل ، لنقـدم أبسط الادلة على كوننا حقا أحيـاء •

❋ تركت الفنانة المشهورة المنتحـرة رسـالة قصـيرة للاحياء ، تطلب المغفرة وتقول : « الحيـاة لا تطاق » • لمـاذا الحيـاة لا تطاق ، الى الدرجة التى تدفع فنانة فى قمـة كل الاشـياء ، الى الانسحاب فى هدوء ؟

❋ لمـاذا الحيـاة لا تطاق ؟

نحن نستبعد — كما يرى البعض — أن « داليـدا » انتحرت خوفا من الشيخوخة أو قلقـا على فقـدان حـب الجمهور ، أو مللا من الوحـدة المتكررة ، أو تأثرا بتعاطى بعض الاشياء الضـارة بالصحة ، أو تخلصا من الاكتئاب • هذه — فى رأينا — مظاهر على السطح ، وان بـدت قوية وخطيرة • ولكنها مجرد اعراض أو نتائج وليسـت السبب

الحقيقى . نحن نحاول النفاذ الى عمق أعمق . هـذا العمق يلمس ثلاثة أمـور رئيسية .

*** الفـن**

العمق هنا هو ضرورة من ضرورات « خميرة » الفـن . هـو العمق نفسه الذى دفع « داليدا » الى التميز فى الغناء والاستعراضات الرشيقة ، والتألق الفنى عاما بعـد عام . العمق الذى أعطاها قوة روحية تحـدت بها أزمات حياتهـا المتكررة بعد فقدان كل الناس المقربين اليها .

ان الانسان العادى ذا الحساسية المتوسـطة ، تنتابه فى لحظات فكرة الانتحار . وقـد يقـدم عليهـا وقد لا . ودوافعه عادة تكون اليأس أو العجز أو الملل أو الجنـون بكل ما يمكن أن تحتويه هذه الحالات من اختلاف التفاصيل .

أما الفنـان ، فعندما تنتابه فكرة الانتحـار ويقـدم بالفعـل عليها ، فلا يكون الامـر يأسـا أو عجـزا أو مللا أو جنونا . لان الفـن — فى حد ذاته — يعطى للانسان طاقة متجددة أشبه بمناعة قوية ضـد مأسى الحياة . طاقة قد لا يلمسها الفنـان ، الا اذا تعرض للصـدمات . قـد يحدث للفنان — بطبيعة الحال — حالات من الانهيار المؤقت أو فقـدان الثقـة الى درجـة تقترب من الشـلل الروحى

والابداعى • ومهما بدت تصرفات الفنان وأفكاره بالنسبة للناس ، شاذة وغريبة ، فان الفنان يبقى أكثر البشر قدرة على التمتع بالصحة النفسية والانسجام مع نفسه ومع العالم • وتصل هذه القدرة أقصاها خلال لحظات الابداع ، ويكفى أن نضرب مثلا بالفنان العالمى العظيم ، الذى أسيىء فهمه كثيرا واتهم بالجنون أكثر من غيره ، ألا وهو « فان جوخ » • ان لوحاته وكتاباته ، انما تعبر عن فنان عرف أقصى معانى التواصل الهادىء بينه وبين العالم ، وهكذا كل فنان •

وينتج من هذا « العمق » ،تطلع دائم لدى الفنان لعالم آخر ، لبشر أخرين ، لقيم وقوانين أخرى للنفس والحياة والاشياء • تطلع دائم يهفو للجديد •

وبعض الفنانين ، يأخذهم هذا « العمق » الى فعل الانتحار ، بحثا عن هذا العالم الآخر • حتى لو كان الثمن حياتهم • حتى لو كان هذا العالم فى طى المجهول • الفنان لا يعبأ بالموت أو المجهول • لان الفن هو ميلاد جديد فى كل لحظة ، وهو مخاطرة أبدية للدخول الى الاسرار • الذى يؤرق الفنان وقد يقتله هو رتابة الاشياء ، وبقاء الحال كما هو ، وقد يفضل التنازل عن حياته من أجل هذه المخاطرة السارية فى دمه •

* معـــدل التــوازن :

طبيعة أخرى لدى الفنـــان بصفة خاصة • انه حساس جدا لعملية « التوازن » ، يعذبه الاختلال بأى معنى ، وكل حيـــاته محاولة — غيرمضمونة — لاعادة توازنات قديمـــة وخلق أخرى جـــديدة •

« داليدا » انتحـــرت وهى تمتلك رصـــيدا ضخما من الشهرة والمـــال وحب النـــاس وتحـــدى الشيخوخة • هى — لا شعوريا — أحســـت ان هذا يخل بقيمة التوازن ومعنى العدالة • الشهرة الواســـعة ، تعمل ضـــد حرية الفنـــان • المـــال الوفير يعمـــل ضـــد طبيعة الفنـــان المتواضعة • حب الناس جميل ، لكن الكثير منه يصبح التزاما دائما للفنان ، والفنان لا يحب الالتزام الا الذى ينبع منه فى التوقيت الذى يختـــاره التحدى الدائم للشيخوخة والزمن ، يشعر الفنان انه يعمل ضـــد الطبيعة • كيف يحـــدث هذا وهو أكثر الناس عشـــقا للطبيعة ؟

هناك — اذن — توليفة متوازنة من الاشياء ، لا يجب على الفنان تجاوزها ، ليبقى منسجما وليبقى فنانا • نحـــن نرى انتحار « داليـــدا » — دون أن تدرى — رد فعـــل لشعور بالذنب لكل ما تملك وحدها فى عالم يوزع الاشـــياء دون عدالة ودون توازن •

* **الفنـــان والمجتمـــع :**

أيضا الفنـــان أكثر الناس ، رغبـــة فى التواصـــل مع الآخرين ، أكثر الناس حنينا الى صلة سحرية بينه وبـــين مجتمعه • هو صحيح عاشق جدا لذاته وحساس جدا للتفاصيل الدقيقة داخله (هـــذا الذى يجعـــله يستطيع أن يعشـــق الآخرين وان بـــدا عكس ذلك للناس) ، لكن هذا يفقـــد معناه ، ان لـــم يرتبط بشـــكل أصـــيل ومتجـــدد بالمحيط الخـــارجى •

وقـــد يعتقد بعض الناس ان انتحـــار « داليـــدا » غير مفهوم ، لانها تخلت عن الحياة فى قمة مجـــدها الفردى وفى الوقت الذى تحصد فيه عائد نجاحها الفـــردى وصنع اسمها الخـــاص المميز • لـــكن الفنـــان لا يقنـــع بالنجـــاح الفردى • هو دائم الاشتياق الى علاقة ما دائمة التوهـــج بين نجاحه الفردى ونجاح مجتمعه • دائم الاشتياق لرؤية تواصل بين تطور ذاته وتطور مجتمعه • تواصل يجعل من نجاحه الفردى ، نجاحا لمجتمعه ونجاح مجتمعه نجاحا له • تواصـــل يقوم على التقدير والالتحام الدائمين •

ونحن نعتقد ان هذا التواصل مفقود فى كل المجتمعات الحديثة • هناك نوع من الانفصال بين الانسان ومجتمعه •

كل سائر فى اتجاه • وهذا يحــول دون السعادة الحقيقية مهما بلغت درجة النجـــاح •

والانسان العادى قد ينزعج لغياب هذا التواصل ، لكن الفنان يحــدث له أكثر من الانزعـــاج يتألم •• يكتئب •• يمرض •• ينعزل •• يهاجر •• يغترب •• قد يجــن وقد ينتحــر •

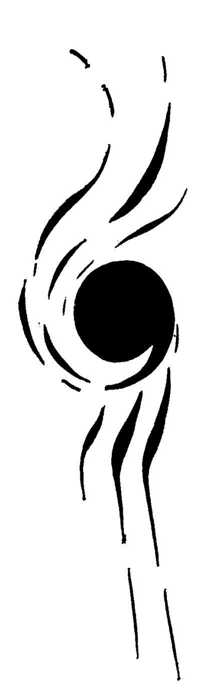
ورغم التقدم التكنولوجى فى كل نواحى الحياة والذى يذهلنا يوما بعد يوم ، الا أن العالم فشــل فى ايجــاد ذلك التواصل الضرورى للصحة والسعادة للانسان العادى • فما بال احساس الفنان ذى الحساسية الزائدة ؟

ان المشكلات الاقتصادية على تنوعها ، أو ما نشهده من تيارات فكرية متطرفة أو اتجــاهات ارهابية ، وظهــور أمراض لــم تعرفهــا البشرية من قبــل كالايــدز وانتشار الامراض النفسية ، انما تجــد جذورها — فى رأينا — فى فشــل المجتمعات فى خلق الصــلة السحرية الانســانية ، بين الذات والجماعة وهذا الفشل ، يتم التعويض عنه بمزيد من غزو الفضــاء وغزو الطبيعة ومحاولة نسيان هذا الاخفاق الانسانى باشعال الحروب والفتن • اخفاق خلق انسان واحد سعيد ومطمئن لسعادته •

*** اشـارة انـذار :**

نحـن نفهم انتحار « داليدا » على أنه الموت حياة ، والموت ابداعا نفهمه على أنه صفعة قوية على وجه هـذا العالم ذى الاحـلام الخطأ والقيم الخطأ والعلاقات الخطأ • نفهمه على أنه نموذج رائع للزهد فيما يعتبره الاحيـاء قمة الدنيـا (الفلوس — الشهرة — الجمـال) • نفهم انتحار « داليـدا » على أنه شجاعة التواضع ، فى عالم جبـان يريد اطالة العمر رغم اختلالاته وتناقضاته الفجة • انتحار لم تنس صاحبته انهاءه بالمغفرة • حتى فى الانتحـار يكون الفنـان رقيقـا •

ألا نتعلم شيئا • ألا نفيق من أوهامنا • ألا نتغير ونغير ما حولنا ، بعد هذه الصفعة • قبل فقـدان المزيـد من استثناءات البشر •



رجـل جـديد فى الافـق

قبل أن أراها • قبل أن أصل اليها • قبل أن أعود منها •
كتبت فى مذكراتى ، « أنا » قبـل « دبلن » ، « أنا » بعـد
« دبلن » • احســاس غامض ، بأن رحلتى الى ايرلنـد
الشمالية ، ستصنع فاصلا بين عمرين فى عمرى • احســاس
غامض بأننى مع العودة ، سأتغير ككاتبة ، كانسانة ، كامرأة •

لمـاذا هذا التوقيت بالتحديد ؟ شهر يوليو ؟

هل لانه الشهر السابع من العـام ، وأنا أحب رقـم
(٧) ؟ احتمـال • هل لاننى أريد استقبال الخريف بتكوين
جـديد ؟ احتمـال •

وتتضاءل الاحتمالات أمام الحقيقة • فيبدو أن للتغير
مواسم • كما للمطر والتزاوج والحصاد واخضرار الشجر •
مواسم لها قوانين خاصة جدا ، تعشق الخصوصية وترفض
البوح بالسر • تقبلت الامر •

مدينــة الـدفء والضحك

وصلت الى « دبلن » وأنا لا أعرف عنهـا الا القليل ،
أعرف أنها عاصمة الجـزء الشمالى من ايرلندا منـذ عام

١٩١٩ ، حين ثار الشعب الايرلندى على سيطرة بريطـانيا العظمى التى لم تسـمح بالاسـتقلال الكامل سمحت فقط بتقسيم ايرلندا الى دولة فى الجنوب لها حريتها وأخرى فى الشمال تتبع بريطانيا .

وأعرف أن « دبلن » أنجبت أحد الكتاب المفضلين لدى ، ألا وهو « جـورج برنارد شو » الذى منح جـائزة نوبـل للآداب عام ١٩٢٥ ، ولكنه رفضها لاعتقاده أنها وسـيلة للحـد من كتابته وتقليص حريته . وبالتـالى فهى جائزة تسىء الى سمعته الادبية والفنية . وأعرف أن « صموئيل بيكيت » مبدع مسرح اللامعقول والحائز أيضا على جائزة نوبـل ، كان ايرلنـديا . وكـذلك « جيمس جويس » . و « جوناثان سويفت » صاحب سلسلة المؤلفات الشـهيرة « أسفار جاليفر » .

وأعرف أن ايرلنـدا ، منطقـة مشتعلة بالاضطرابات السياسية التى تنفجر من حين لآخـر .

وأعرف أن أهل ايرلندا يعشـقون الخيـل . وأخـر ما أعرفه ، مذاق القهوة الايرلندى ، ومذاق السمك المدخن الذى تصـدره ايرلندا الى العالم .

وصلت الى « دبلن » لاجـد مدينة شـديدة الكرم ،

شديدة الخضرة ، بحرها أذاب الحـــدود بينه وبين السماء •
أذاب أهلهـا الحـدود بينهم وبين تنوع الجنســيات ••
مقبلون على الحياة فى « دفء » ايرلندى مميز ، لم يستطع
« البرود » الانجليزى النيل منـــه • يضحكون فى سلاسة
تخجل التحفظ الانجليزى • يقولون عن الشعب الايرلندى ،
انه مهيأ للضحك من الصباح وحتى المســاء وكأنهم بالــدفء
والضحك ، يهزمــون ســيطرة بريطانيــا عليهم • وخالجنى
الاحساس الغامض بالتغير •

الآن أصبح رغبة • كيف بعد رؤية مدينة كهذه وشعب
كهـذا يبقى الانســان كمـا هــو ؟ ويعــود من الرحـلة
كمـا بداهـا ؟

وصلت فى توقيت انعقاد مؤتمر دولى للنســاء ، اقيم
فى كلية « ترينتى » جامعة « دبلن » وضم ما يقرب من
ألف امرأة ومائتى رجل من خمسين دولة •

أدهشنى وأسعدنى ، التواجد الكبير والفعال للرجـل
فى جميع جلسات المؤتمر ، التى شملت كل فروع المعـارف
الانسانية والتخصصات العلمية • بالاضافة الى هـذا ، فقد
خصص للرجال مجموعة من الجلسات تحمـل عنوان « ردود
أفعال واستجابات الرجال لحركات تحرير المرأة » •

وتلك كانت مفاجأة المؤتمر أخافت بعض النساء ، لان الرجال أصبحوا ينافسونهن فى القضية • مفاجأة أسعدت كل النساء لان رجلا جديدا بدأ يظهر فى الافق •

ومفاجأة ساعدتنى على تحول رغبتى فى التغير الى حقيقة ، بدأت بتغيرى ككاتبة • فهذه المرة ، لن أكتب — كعادتى — بعد حضور مؤتمر نسائى ، عن النساء بل سأكتب عن الرجال الذين جذبوا الاضواء •

ماذا قال الرجال

أول جلسة تناول الرجال بالتحليل النشأة التاريخية لما أسموه « أيديلوجية القوة » ، التى تطورت لتضع الرجل فى مكانة أسمى من المرأة اجتماعيا ، ودينيا وأخلاقيا وانسانيا • وأثاروا أن التقدم العلمى التكنولوجى الذى حققه العالم ، منذ بداية التاريخ وحتى الآن ، لم يكن ممكنا الا باستغلال النساء — نصف العالم — من خلال أيديلوجية تجعل الثروة المادية ملكية خاصة للاقلية ، والنساء ملكية خاصة للرجال سواء انتموا الى الاقلية أو الاغلبية • والنساء لهن فضل على العالم ومع ذلك لم يأخذن حقهن التاريخى العادل سواء فى الثروة أو الاعتراف الاجتماعى • بل على العكس هناك ردة عالمية لمزيد من

الاقلال من شـأن النسـاء ومزيد من تشـويه قدراتهن • وأوضح الرجال ان هذه الردة العالميـة ، دليـل كاف على فشل « أيديلوجية القوة » لصنع التاريخ وتحقيق العدالة الاجتماعية • هناك احتياج لايديلوجية بديلة ، تصنع حضارة جـديدة ، تدخل النساء كعنصر أساسى فى الاخـذ ، تماما كدخولهن كعنصر أساسى فى العطاء •

تناول الرجال أيضا فى هذه الجلسة العلاقة بين العنف والذكـورة • وأوضحوا عدة نقاط جديرة بالتأمل • أولا يوجد الاعتقـاد الخاطىء من قبل بعض النسـاء وبعض الرجال ، بأن هناك علاقة طبيعية غير قابلة للشك أو للجدل ، بين صفات الرجـل الخاصـة « الذكـورة » والعنـف • بمعنى أن « الذكورة » بفطرتها تميل الى المنافسة والعدوانية والسيطرة وفرض النفوذ واستخدام العنف • والرجل يتميز قدر تمسكه وتنميته لهذه الصفات « الغريزية » •

ثانيا ، لم ينكر الرجـال وضـوح الترابط بين العنف و « الذكورة » الذى أدى فى تطوره ، الى سـيادة مبـدأ القـوة سـواء على مستوى العلاقات الانسانية الشخصية أو على مستوى العلاقات السياسية بين الدول • تطور يروج للحروب ويدعم انتاج المزيد من الاسلحة • لكن هذا الترابط ليس « غريزيا » أو « فطريا » • بل هـو نتـاج لنظـام

اقتصادى وسياسى وأخلاقى محدد • وهذا النظام يبدأ منــذ الطفولة • حيث تصنع للاولاد الذكــور أنواع من اللعب تنمى ميول العدوانية والعنف والمنافسة ، وتساءلوا « ما معنى أن يلعب طفل فى الخامسة من عمره بمسدس ؟ » الامــر ليس تسلية أو تدريبا على الشجاعة ، لكنه يعكس الاعتقاد الخاطىء بالترابط بين « الذكــورة » والعنف من جهة • وفى الوقت ذاته ، جــزء ضرورى لاعــادة انتــاج رجــال فى المستقبل ، يحتاج اليهم نظام القوة والحرب من جهة أخرى •

تغيير اللفافات •• أم تغيير العالم

ما أجمل الصدق • ما أجمل لمس الجــذور من أجــل ثمرة لم نتذوقها بعد • وما أجمل التواضع الذى نعيش به أعمــاق الآخــرين • هذه بعض الخواطر التى داعبت فكرى وأنا أستمع الى أحــد الرجال • فى بداية الاربعينيات من عمره ، يدرس الاجتماع باحدى الجامعات الامريكية • بــدأ الجلسة قائلا : « سأحكى استجابتى لحركات تحــرير المرأة ، من خــلال تجربتى الشخصية مع المــرأة ، وليس من خلال بحث أكاديمى » •

وأخذ يسرد ملخص العشر سنوات الاخيرة من حياته • التقى بها لاول مرة فى احدى الندوات الادبية • هــو يهوى

الأدب وله بعض التجارب فى كتابة القصة القصيرة • وهى تعمل فى المجال الصحفى • نشأت بينهما علاقة حب وصفها بقوله « أحسست انها ستدوم طويلا » •

ويكمل : « فى تلك الفترة ، لم يكن فى ذهنى شىء اسمه قضية المرأة • كنت فقط أريــد النجــاح فى عملى كاســتاذ بالجامعة وكنت أريد توثيق علاقتى العاطفية » وتتغير ملامح الرجل الى مزيد من الرقة وهو يتذكر حبيبته ، التى أخذت بيده للتعرف على بعد غائب عنه من القهر الانسانى • قهرها كامرأة فى عالم يتقدم فى كل شىء ، الا فى الانسانية • تعرف من خلالها على أدق الاحاسيس الخفية التى تصنع ســمات الانسان المقهور • قال انه بدأ يدرك لمــاذا يقولون عن المرأة انها كائن غامض ، متقلب •• عاجــز •• خائف وأحيــانا شرير • وأحس فى أخص اللحظــات بينهما — فى لحظــات ممارسة الحب — أنها من داخل الاعماق ، تعانى بشدة • قالت له مرة : « احتــاج الى أكثر من حبك ، ليكتمل حبى ولتكتمل انسانيتى • احتاج الى حريتى • » ومن أجمــل الاشياء التى ذكرها أستاذ الاجتماع العاشــق أنه عــرف لمــاذا فى البداية ، أحس أن العلاقة ستدوم طويلا • قال : لاننى أحببتها • أحببت وفهمت ثورتها • دامت ، لان حبنــا أثمــر ولادة جديدة لكل منا » •

تذكرت فى هذه اللحظة أغنية الملك « أرثر » فى فيلم « كاميلوت » تساءل « أرثر » متواضعا على أنغـــام رقيقة « كيف تعامل المرأة » وأخـــذ يعدد — فى حيرة — كل الوسائل التى يمكن أن تخطر ببال ملك عظيم مجرب . « كيف تعامل المرأة » ؟ وانتهى الى الجواب ذلك السهل الممتنع . فقـــط أن تحبها . ببساطة أن تحبها . قصـــد الملك « أرثر » الحب الحقيقى . الحب الناضـــج . وليس الحـــب النـــاتج من الاحتياجات أو المشوش بالحـــرمان أو برغبـــات التملك . الاحتياج والحرمان والتملك ، مفاتيح خطـــأ لكننـــا — مع الاسف — نصر على استخدامها وبعنف . وعنـــدما تتكسر الابواب نندهش ولا نتغير .

وأكد الاستاذ العاشق ، وهو يقترب من نهاية حديثه ، على أن الوسيلة الوحيدة التى تمكن الرجل من تقدير مشكلة المـــرأة ، هى أن يعيش حياتها ويمارس الوظائف المفروضة عليها ويتعرض الى التفرقة التى تخضع لها ، وليس عن طريق البحوث العلمية .

قال : « المرأة أيضا تريد تغيير العالم ولديها القـــدرة ومن مصلحتها التغيير . ولكن كيف تخرج الى تغيير العالم ، وهى مطالبة أساسا بتغيير لفافات الاطفال ؟ كيف تغســـل

العالم من الظلم والقبح ، وهى مطالبة أساسا بغسيل الاطباق والملابس ؟ » •

وأنهى حديثه موجها كلماته الى حبيبته • موجها عينيه الى الفراغ • « أشكرك حبيبتى • قبلك كنت عاشقا • بعدك أصبحت عاشقا وثائرا » • أكد هذا العاشق الثائر على أن « الذات » و « الموضوع » لا ينفصلان • على العكس ، من لا ذات له ، لا موضــوع له • وكلما قويت الذات وزاد ثراؤها ، كلما قوى موضوعها وزاد ثراؤه • ويؤكد أيضا على الدور الجميل الذى تلعبه العاطفة الصادقة ، فى تغيير الفكر والسلوك • بل تزداد قناعة العقل ، كلما زاد صداها العاطفى داخــل الانسان ، متى نتوقف عن وضع العاطفة فى المرتبة الدنيا ؟ متى نتوقف عن فصل الاحساس عن الفكر ؟ متى نحب بصدق الى حــد المزيد من الوعى ؟ متى نثق فى قدرة الحب على التغيير ؟ متى نحكى عن الحب دون خوف ؟ أمنيات أكثر منها تساؤلات صاحبتى •

النســاء القبيحات فقط يطــالبن بالمســاواة

ما هى السمات الشخصية ، الجسمية والنفســية التى تميز المرأة الثائرة ؟

كان هذا موضوع شغل الرجال المشتركين بالدراسة والتحليل ، تناولوا النظرة الخاطئة التى ترى أن المرأة « الجميلة » فى الملامح والقوام ، وفقا للمقاييس الاجتماعية السائدة ، لا تحس القهر الاجتماعى والنفسى الواقع على النساء • وبالتالى لا تفكر فى التمرد والثورة هى « جميلة » ويرغبها الرجل ، فلماذا تدخل نفسها فى معارك ، قد تخسر بسببها جاذبيتها للرجل ؟ الوجه الآخر لهذه النظرة الخاطئة هو أن النساء « القبيحات » وفقا للمقاييس الاجتماعية السائدة — وقد حرمن من رغبات الرجال فيهن — يندفعن الى الثورة على الرجل ونظام المجتمع •

وهذه النظرة تحدد سمات لكل من المرأة « الجميلة » والمرأة « القبيحة » ، الاولى تتميز برقة شديدة هادئة • قادرة أكثر على الاقناع والاقتناع • تتمتع بقدر أكبر من السلام النفسى ، وأقرب الى الحياة السعيدة الهانئة ، ولا تتأخر فى الزواج •

أما المرأة « القبيحة » الثائرة ، فهى عدوانية ، جامدة الرؤية • متوترة فى أغلب الاوقات • تفتقد السلام النفسى • غير سعيدة فى حياتها وتتزوج فى سن متأخرة أو لا تتزوج على الاطلاق ، مما يزيد من عدوانيتها وجمودها وتوترها النفسى •

أوضح الباحثون الرجال ، أن هذه النظرة للمرأة الثائرة ليست فقط خاطئة علميا ، ولكنها — وهذا هـو الاخطر — تهين المرأة انسانيا ، وتهين معنى الثورة فى الوقت ذاته .

العـــلاقة بين الجمـال والثورة

قدم الرجال تعريفا جديدا لمعنى الجمـال . المـرأة الجميلة ليست هى المرأة صاحبة العيون السوداء أو الملونة الواسعة والرموش الطويلة والخدود لحمراء والفم الدقيـق والقوام المتناسق . المرأة الجميلة ليسـت هى المرأة التى تتابع آخر « مودات » الازياء وأخر فنون الطهو . المـرأة الجميلة هى صاحبة قضية المرأة الجميلة تتابع أخر « مودات » الاستغلال الحديث . تساءلوا ، ما قيمة الملامح المرسـومة والقوام المتسق لامرأة لا تعى حقوقها الانسانية ؟ ما الفضيلة التى يحققها الجمال الخارجى ، اذا كانت صاحبته داخليـا لا ترى قبح العالم ، أو تراه وتسكت عليه ؟ الجمـال هـو التطلع الى الحق والعدل ، الجمال كفاح من أجـل حيـاة « أجمـل » .

والنتيجة أن هناك امرأة ثائرة جميلة وامرأة خانعة قبيحة.

تم كذلك توضيح ان النظرة الخاطئة السابقة ، تفترض أن ثورة المرأة ، ما هى الا وسيلة تعويضية لشـعورها بأن

الرجل لا يرغبها • أو هى نوع من التسـامى « بالقبح » الموصوفة به • هنا — فى حقيقة الامر — تفقد المـرأة صدقها وتفقد الثورة معناها الاصيل • علق أحـد الرجال الحاضرين فى المناقشة بقوله : « هذه نظرة متعمدة لحرمان المرأة من شرف كونها ثائرة • وسلاح يشهره الرجل والمجتمع للتأكيـد على أن النساء لا يثرن بدافع الرغبة الحقيقية فى التغيير ، فوراء ثورتهن المفتعلة رجل • أما الثورة الحقيقية فهى شرف احتكره الرجال ، ولا يريدون المنافسة •

رد أخر متحمسا : « لا أفهم هذه النظرة المجحفة الثورة — كما أراها — من أكثر الاشـياء احتياجا الى انسـان جميـل » •

وأثار أحد الباحثين نقطة هامة كثيرا ما يسـاء فهمهـا سـواء بحسن نية أو بشكل متعمد ، الا وهى رؤية المطالبة بالمساواة بين المرأة والرجل ، على أنها تشابه بين الجنسين ، والغاء ما يمكن الاتفاق عليه بـ « الجاذبية » التى يحسها كل منهما للآخـر ، وهى نقطة تساعد على تدعيم النظـرة الخاطئة لمفهومى الجمال والثورة بالنسبة للمرأة •

أوضح الباحث ان المرأة تتطلع الى الغاء الفروق التى صنعتها الطبيعة الاجتماعية • وليس الى الغاء الفروق التى

صنعتها الطبيعة . المرأة لا ترفض دور الحبيبة والزوجة والام ، الذى يتدخل تكوينها الانثوى فى تشكيله . وانما ترفض فرض أنماط من القيم والسلوك والوظائف بحجة أنها انثى . المرأة لا تريد التشبه بالرجال . تريد أن تكون امرأة حرة وحريتها هى التى ترقى بكل أدوارها وبجاذبيتها للرجل وأعطى الباحث مثالا . قال ان المرأة لا تهرب من الامومة ، الا اذا فرضنا عليها ترك العمل أو عدم العمل أساسا لانها أصبحت أما . الرجل حين يصبح أبا ، لا نطالبه بالبقاء فى البيت بسبب دور الابوة الجديد . وختم الرجل كلامه بأن ما يسمى « الطبيعة » قد تم تشويهه تاريخيا من أجل تدعيم بقاء نظام سياسى محدد . أما « الطبيعة » فهى بريئة . كما انها تتغير مع تغير المجتمع . واندهش أن « طبيعة المرأة » رغم ما طرأ من تغيرات جذرية تقريبا فى كل نواحى الحياة ، الا اننا نصر على ثباتها . تساءل ترى لماذا هذا الاصرار ؟ أهو وفاء غير عادى لطبائع الاشياء ؟ وختم حديثه بابتسامة قائلا : « ولو كانت طبيعة المرأة » ضد العدل ، لابد أن نبحث عن « طبيعة » أخرى .

السعادة والثورة

قدم أحد الرجال من كندا يعمل طبيبا نفسيا ، بحثا ممتعا يدور حول خطأ الترابط المفترض بين المرأة الثائرة

والتعرض للمشاكل النفسية ، فمن خــلال الدراســة النظرية المطبقة على عينة من النساء ، ومن خلال ممارســته العملية للاضطرابات النفسية ، توصل الى نتيجة عكسية تماما • فالمرأة الثائرة صاحبة قضية ، هى الاقــرب الى الصحة النفســية والسعادة • صحيح ، هى معرضة — نتيجة تمردها — الى بعض التقلبات النفسية وأعراض عدم التكيف ومشاكل تنجم عن اختلافها • ولكنه يرى أن هذه ظواهر صحية تصاحب الانسان الحساس الذى يدرك أنه يقف ضــد نظــام كامل بمؤسساته وتقاليده وأجهزته الفكرية والبوليسية • وهى غالبا أعراض مؤقتة • الثورة تتدخل لتحــول دون اصابة المــرأة بالانهيار أو الجنــون أو العزلة • فى حين أن النســاء اللائى يعشن دون قضية ، الا قضــايا جذب الرجل والدوران فى فلكه وفلك القيم السائدة ، فانهن يكن عرضــة لاضطرابات نفسية خطيرة ، قد لا يشعرن بها ولا يعرفن حقيقتها فى غالب الاحيان • هن يتهاتف عليهن الرجال ، يحققن ما يسميه المجتمع « بالاستقرار » مشبعات جنسيا ، مشبعات ماديا • لديهــن أطفال • ويقدسن نزهات أخر الاسبوع ، وحريصات على تأدية كل المناسبات الاجتماعية • وصف الطبيب كل هــذه الاشياء بأنها « استهلاك » سواء بالمعنى المادى أو الجنسى • بعيدة كل البعد ، عن معنى السعادة الحقيقى والصحة النفسية والتكامل الانسانى • هذه أشياء لا تتحقق الا بوجود هــدف

واضح وانسانى ، يعطى قيمـة ومعنى لحيـاة الانسان ، والثورة — بهذا المفهوم — أقصى ما يمكن أن يعطى للانسان قيمة ومعنى .

وختم الطبيب نتائج ملاحظاته النظرية والعملية بتحديد نوعية الرجال الذين يتهافتون على النساء اللائى بلا قضية ، هم رجال غالبا يعملون فى أعمال « هامة » . هامة تعنى أنها جزء عضوى من نسيج النظام الاجتماعى . ليس لديهـم مشاكل مادية تذكـر . يعـانون من الازدواجية النفسـية والعاطفيـة والجنسـية يميـلون — ولو شـعوريا — الى العدوانية . دائمـو الشـك . بداخلهم قلق لا يستطيعون مواجهته . غالبا ينظرون الى الامور بعين واحدة . وبالطبع لا يثورون ضد أى قيم مألوفة . اللهم الا تلك القيم التى تضمن استقرار الزواج واستمرار الاستهلاك المادى . وحتى فى ثورتهم لا يتجاوزون الكلام وسط الاصدقاء خلال نزهات آخر الاسبوع .

فالرجل مهما ادعى الاختلاف ، لا يطيق امرأة تتفوق عليه . فكيف يرتبط بامرأة لها قضية وهو بدون قضية .

استمع بسعادة لا أكاد أصدقها . أحقا رجال هم الذين يتحدثون أمامى وبهذا الحماس والصدق ؟ لكن لم الدهشة ؟

الجمال هو التطلع الى الحق والعدل • الجمال هو الثورة ، وليس هناك أى سبب يدعونى للاعتقاد بان الجمال — بهذا المعنى — تعرفه فقط النساء ، الجمال عادل لا يفرق حين يهب نفسه للبشر •

الرجـــل يثـــور شعرا

كان اليوم الاخير فى المؤتمر مخصصا للاعمال الادبية والفنية • ومرة أخرى ، يفأجنا الرجل بكتابة الشعر ذى الحس الانسانى المرهف ، متضامنا مع ثورة النســـاء ، واذا كان وقوف الرجل بجانب المرأة كباحث وكانسان وكعاشق أمرا جميلا ومؤثرا • فان وقوفه بجانبها كفنان الدلالة الاكبر على صدق تأييده للمرأة وفهمه لها • لان الانسان يصل فى لحظات الابداع الى قمة الصدق •

قصيدة : أيتها المـــرأة •• حررينى

ولدت •• ولدت معى خصائصى ولادة سلسلة •• ولادة مبرمجة • قالوا عنى سادى •• عنصرى •• مغتصب •

جعلونى مسئولا عنك

جعلونى مسئولا عن الدمار والحرب

قالوا أنت الاب المقدس

أنت اله على الارض

ولدت ولدت معى خصائصى

قالوا : لك غريزة لا تخطئها

قالوا : لك امرأة لا تحررها

ولدت •• ولدت معى رذائلى

أيتها المرأة •• حررينى معك•

أيتها المرأة •• حررينى معك

حررينى من الدور المفتعل •• من السيد المفتعل

حررينى من اغتصاب انسانيتى •

حررينى من وهم حريتى

حررينى من تقييدى لك

حررينى لاولد رجلا جديدا

حررينى لاولد رجلا جديدا

حتى لو كانت الولادة عسرة

أريدها ، لاصنع وحدى خصائصى

قصيدة •• العـــالم •• الكعكة

لن أثور معك ،

من أجل قطعة أكبر من الكعكة ، سأثور معك •

من أجل تغيير وصفة الكعكة

من أجل تغيير مقادير الكعكة

لا يهم .. لا يكفى أن نتساوى فى عالم مقلوب رأسا على عقب

لا يهم .. لا يكفى أن نتساوى فى عالم يحكمه السماسرة والقوادون

المساواة من أجل ماذا ؟

نشترك معا فى قتل البشر ؟

نصنع معا قرارات غزو اللون الاخضر ؟

المساواة من أجل ماذا ؟

حرية ممارسة الحب على فراش العهر ؟

حرية الكذب ؟ حرية القاء فائض الغذاء فى البحر ؟

ولن أثور معك

اذا لم تبتسم وترقص وتغنى

لا أؤمن بثورة ضد المرح

ما رأيك أيتها المرأة الثائرة . هل تقبليننى ؟

عائدة من « دبلن » يستوقفوننى فى المطار .. لماذا ؟
قالوا أحمل وزنا زائدا لابد أن أدفع ثمنه بالجنيه الايرلندى ،

كيف عرفوا ؟ فالوزن الزائد ليس فى حقائب السفر • بـل داخلى • وقد دفعت — منذ زمن بعيد — الثمن • انه جرعة التغير كانسانة • دائما أسبح ضد التيار • التغير اننى وعبت تواضعى غير المبرر • لم يعد كافيـا الآن ، ان أسبح ضـد التيار • المطلوب شىء أقوى ، لم استقر عليه الا بعد أن قرأت أحد الكروت الصادرة من المؤتمر : « كن واقعيـا » أطلب المستحيل ••

●———●

دار تضـــامن المـــراة العربية
٤ ا شارع ضريح سعد متفرع من شارع القصر العينى
القاهرة — مصر
ت : ٣٥٦٣١٦١

رقم الايداع ٥٤٤٢ / ٨٨

الطبعـــة الأولـــى